

دار الشروق
جماسان الغيط لاني
هتـون
الآهـرام



متون
الأهرام

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

الطبعة الثانية

طبعة الشروق الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دارالشروق

أسسها محمد المعتمد عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيدي بويه المصري -

رابعة العدوية - مدينة نصر

ص . ب : ٣٣ البانوراما - تلفون : ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

البريد الإلكتروني : email dar@shorouk.com

جمال الغيطاني

متون الأهرام

دار الشروق

مَتْنٌ أَوَّلُ

تَشَوُّفٌ

عَرَفَهُ أَوَّلَ سَعِيهِ، غير أنه لم يُحِط بِخَبْرِهِ إِلَّا بَعْدَ التَّمَامِ. وما بين البداية والنهاية استغرق الأمر سنوات طوالاً ماتزال أصدائها سارية. ممتدة، كذلك وجوده. حتى وإن أصبح غير مائل مع تمام اليقين بانتفاء إمكانية اللقاء والمخاطبة.

رغم ذلك يثق أنه هناك، يمكنه أن يمضي في أى وقت فيلقاه، يفد على ذاكرته فى أوقات متباعدة، مختلفة، يمثّل بقوة حتى ليكاد يلمسه بيديه ويسمعه بأذنيه، إلا أنه وثيق الصلة بمواضع معينة لا يمرّ بها إلا ويحيى..

«لا تستدعى الذاكرة لحظة ما إلا مقترنة بموضع ما».

لحظات من النهار الشتوى أو الخريفى أو الصيفى، يبدو خلالها مبتسماً بهدوء، قامته الممتلئة، مستقيم الظهر، بارز الصدر لم يغير جلسته طوال أعوام، كذا وجهة عينيه، ونظراته، حتى عند حديثه إلى آخرين، أما تعبير الدهشة فمبادر دائماً، كأنه يطالع أمراً عجيباً للتو.

مواضع شتى ارتبطت به، أهمها جامع الأزهر وما يتعلق به، الرصيف المحاذى لباب المزيّنين، المؤدى إلى الرحبة الفسيحة حيث الصحن وإطار الأعمدة والمزوكة فى الجهة الغربية، والأروقة المشرفة والظلال ومهابة الشيوخ الماضين، وأنفاس الصالحين الذين لزموا وعشقوا بعد أن عرفوا.

«يستحيلُ العِشقُ بدونِ مَعْرِفَةٍ».

أما اللحظاتُ فَتَمَّتْ إلى الصبا، إلى زمنه الأول، عندما كان كلُّ شيء مُقبلاً والتطلعُ إلى الأمامِ غالبٌ، عام. إلى ذلكَ الرصيفِ جاء صبياً دون العاشرة، عبّرَ ميدانَ الحسينِ إليه، لم تكن ثمة حواجز تقسم الطريق. المكان متضامٌ وقشيدٌ وأعمقُ ألفة. قربه يستهى خطٌ للترموای رقم تسعة عشر، واجهة المركبات مقطبة حزينة. يرمقها في موضع قصيٍّ من ذاكرته المثقلة الآن، طلاءٌ أصفر فاتح، عجلات سوداء، مصابيحٌ عميقة.

كيف اهتدى إليه؟

لا يمكنهُ التعيينُ أو القطعُ، ربما أثناءَ تجوُّله مع صَاحبه بعدَ الخروج من المدرسة الإعدادية القريبة، كانوا يشرعون في استكشافِ الدنيا عندما يعبرون ميدانَ الحسينِ أو ميدانَ بيت القاضي، أما ميدان العتبة، والأوبرا، فلا يجرءون إلا بصُحبة آبائهم وذويهم، أماكن كانت قريبة البعد بمقاييس الوقتِ المنقضى.

«الأمرُ دائماً نسبيٌّ».

لو قارنَ ما حلَّ به من دهشةٍ بمقاييس حاضره، لَعَادَكَ عبوره شارع الأزهر قديماً وصوله القطب الجنوبي الآن، أو حواف سبيريا، أو مضيق بيرنج. بل إن عبور قبو غامضٍ لِيُثِيرَ فِيهِ من الرِعْدَةِ والتوقِ والحذر، مالا تقدر قُوَى شتّى أن تَبْعَثَهُ.

«للبدایات دائماً شأنٌ عظیم، والبدایاتُ لا تتكرر أبداً».

البداية لحظة، تحوى المكان والزمان، بعضُ النقاط يُمكنُ تحديدها والأخرى تتوه في إجمالى البنية الغاربة، لذلك لا يُمكنُ تحديدُ يومٍ معينٍ لرؤية الشيخ تُهَامى أولَ مرةٍ، كيف اهتدى إليه؟ ما من إجابةٍ مؤكدة، غير أنه من أوائل الذين اتصل بهم وتعامل معهم مباشرة في سنه المبكرة تلك. كان يعرضُ الكتبَ القيمة يرصّها بحذاء الجدار الرمادى العتيق، عناوينٌ مختلفة: فقه، تفاسير، تاريخ، روايات طُبعت في سنوات من القرن الحالى أو الماضى، يقعد فوق كتبٍ مرصوصة، مربوطة بحبلٍ متين. تتلامسُ راحتا يديه بين رُكبتيه، يكتُبُ الأسعار بقلمٍ رصاصٍ على الأغلفة الخلفية، لا يُجادل، لا يُناقش. لكن.. إذا اقترح المشتري سعراً أقلّ وبدا ذلك نتيجة حاجة وانعدام قدرة فإنه يؤمئ فقط، يَهَبُ الكتابَ مُقابلَ ما يُمكنُ دفعه، لكنه لو لمَح استهانة أو استهتاراً ما فإنه يتطلعُ بقسوة.

«يُولَدُ النهارُ مِنَ الليلِ، وَيَخْرُجُ الليلُ مِنَ النهارِ».

كان يرقبه صامتاً. بعد تأكده من اهتمامه وجدّيته رغم صغر سنّه بدأ يقترحُ عليه، يدُلُّه. كان يتناولُ الكتابَ ويقعدُ عندَ الطرف الآخر، لا يَقُومُ إلا بعد الانتهاء، كثيراً ما استغرقته العوالم المتخيلة، فلا ينتبه إلا عند اضمحلال الضوء وبدء الغروب. اقتراب الرجال المكلفين بإشعال المصابيح المرتفعة المعلقة على الطريق، يَسْنُدُونَ السلاّم النحيلة، يصعدون بسرعة فوقها، بيدهم عصى طويلة تنتهى بما يُشبه الكرة،

تَابَعَهُمْ يَوْمِيًّا بِاهْتِمَامٍ، وَلَمْ تَقَعْ عَيْنَاهُ عَلَى مَصْبَاحِ إِضَاءَةٍ فِي أَيِّ مَدِينَةٍ نَزَلَهَا، أَوْ أَيِّ جَسْرِ عَبْرَةٍ، إِلَّا وَتَذَكَّرُ عَلَى الْفَوْرِ مَلَامِحَ أَوْلَئِكَ الْمَجْهُولِينَ، الْعَابِرِينَ.

«إِنِّهَا لِلزِّيَارَةِ، لَيْسَتْ لِلْإِقَامَةِ»

تِلْكَ اللَّحْظَةُ لَا تَحُلُّ عِنْدَهُ، إِلَّا وَيَسْتَعِيدُ جَلِيسَتَهُ وَابْتِسَامَتَهُ الْغَامِضَةَ، وَاتِّجَاهَ بَصَرِهِ صَوْبَ الْغَرْبِ، كَأَنَّهُ يَنْتَظِرُ خَبْرًا أَوْ يَتَوَقَّعُ قُدُومًا مَا مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ، أَوْ يُتَابِعُ أَمْرًا لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا هُوَ. فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ كَانَ فُضَاءُ الْمَدِينَةِ صَافِيًّا، مُرْهَقًا، وَكَانَ الْوَاقِفُ فَوْقَ جَبَلٍ الْمُقَطَّمِ يُمَكِّنُهُ عَدَّةً حَجَارَةِ الْأَهْرَامِ إِذَا أُوتِيَ قُوَّةَ الْبَصَرِ.

الْأَهْرَامُ.....

مَقْصِدُ الشَّيْخِ تَهَامِي، لُبُّ اهْتِمَامِهِ، بُورَةُ تَفْكِيرِهِ، سَبَبُ وَجُودِهِ فِي الْمَدِينَةِ. فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، مِنْ مَكَانِهِ فَوْقَ الرِّصِيفِ كَأَنَّهُ يَطُوفُ بِالْأَهْرَامِ، يُدَقِّقُ مَعَالِمَهُ. رَغْمَ قِيَامِ عِمَارَاتٍ عَدِيدَةٍ عَبْرَ الْفَرَاغِ الْفَاصِلِ، تَحُولُ دُونَ وَقُوعِ عَيْنِهِ عَلَى الْبِنَاءِ الشَّاهِقِ.

«أَحْيَانًا تَرَى الْبَصِيرَةَ مَا لَا يَرَاهُ الْبَصَرُ، وَأَحْيَانًا يَرَى الْبَصَرُ مَا لَا تُدْرِكُهُ الْبَصِيرَةُ».

لَكُمْ رَأْيٌ مَوْجُودَاتٍ شَتَّى رَغْمَ بُعْدِهَا وَخُرُوجِهَا مِنْ دَائِرَةِ النَّظَرِ، وَلَكُمْ

غَابَتْ عَنْهُ مَحْسُوسَاتٌ طَالَ مَثْوُهُ أَمَامَهَا، لَيْسَ هَذَا حَالُهُ بِمُفْرَدِهِ، لَمْ يُخْتَصَرْ بِهِ. إِنَّمَا يَشْمَلُ ذَلِكَ النُّوعَ الْإِنْسَانِيَّ كُلَّهُ.

قَالَ إِنَّ الْوَاقِفَ فَوْقَ مِثْدَنَةِ الْأَزْهَرِ الْوَسْطَى يُمَكِّنُهُ الْإِحَاطَةُ بِأَدَقِّ رُؤْيَا مُمَكِّنَةِ لِأَهْرَامِ الْغَرْبِ.

وَهَلْ رَأَى إِنْسَانٌ. أَوْ أَخْبَرَ نَصْرٌ قَدِيمٌ عَنْ أَهْرَامٍ فِي الشَّرْقِ؟

الْوَضُوحُ الْجَلِيُّ يَكُونُ مَرَّتَيْنِ، عِنْدَ الشُّرُوقِ وَالْغُرُوبِ رَغْمَ قُرْبِ مِثْدَنَةِ مَسْجِدِ مُحَمَّدٍ بِكَ أَبُو الدَّهَبِ حَتَّى يُمَكِّنُ لِلوَاقِفِ بِشَرْفَتِهَا أَنْ يَتَبَادَلَ الْحَوَارِ بِدُونِ رَفْعِ الصَّوْتِ عَالِيًا مَعَ الْآخِرِ الْمَطْلِ عَبْرَ مِثْدَنَةِ الْأَزْهَرِ، إِلَّا أَنَّ الْأَهْرَامَ تَبْدُو مُغَايِرَةً. لِسَنَوَاتٍ طَالَعَ كَافَّةَ التَّفَاصِيلِ فِي الْأَوْقَاتِ الْخَمْسَةِ السَّابِقَةِ عَلَى الْأَذَانِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي وَهْجِ الضُّوءِ وَسَطْوَعِهِ وَمَرَّةً مَعَ اكْتِمَالِ اللَّيْلِ وَحُلُولِهِ، وَمَرَّةً مَعَ وَهْنِهِ وَقُرْبِ زَوَالِهِ. خَمْسَ مَرَّاتٍ يَوْمِيًّا، يَصْعَدُ، السَّلْمُ الْحَلْزُونِي الَّذِي لَا يَتَّسِعُ إِلَّا لِشَخْصٍ وَاحِدٍ. مَا زَالَ كَثِيرُونَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ قُوَّةِ صَوْتِهِ، وَنَفَازِهِ إِلَى الْأَذَانِ الْقَصِيَّةِ، وَفِيضِهِ عَبْرَ الْفَرَائِغَاتِ الشَّوَّاسَةِ، حَدَّثَ عَنْ رُؤْيَا الْأَهْرَامِ وَاخْتِلَافِ ظُهُورِهَا عَبْرَ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ:

«هَلْ كَانَ بِإِمْكَانِكَ مَشَاهِدَتَهَا لَيْلًا؟»

يَتَخَلَّلُ لَحِيَّتَهُ شِبْهُ الْمِثْلَةِ. أَصَابِعُهُ نَحِيلَةٌ، طَوِيلَةٌ، الْأَهْرَامُ لَا تَغِيبُ عَنْهُ أَبَدًا، إِذَا لَمْ يَطَالِعْهَا بِالْبَصَرِ، فَإِنَّهُ يَشْهَدُهَا بِقَلْبِهِ، وَبِقَدْرِ التَّرْكِيزِ يَكُونُ

الوضوح، سواءً كانَ الوقتُ غَسَقًا أو فجرًا، ومن يثابر، مَنْ يُجالِد الوَهَنَ والضَّجَرَ واليأسَ فإنه يرى عَجَبًا.

«ما يبدو واضحًا في حين، يَغْمُضُ في حينٍ آخر، وما يكونُ غامضًا في وقت، ينبجلي في وقت.»

لم يُصرِّحْ بأكثر من ذلك فيما يتعلَّقُ بالرؤية وتسديد البصر، لم يَقُلْ: لماذا التحق بالأزهر، لم يُفصِّل.. . أى عِلْمٍ دَرَسَ؟ أين أقام؟ فى أى رِوَاق؟ كان يتدقَّقُ باللفظ، بالجملة إثر الجملة إذا تعلَّقَ الأمرُ بالأهرام، لكنه يَضِنُّ، يشحُّ إذا حادَ الحديثُ عن شَخْصِهِ، أثارَ صمته ودَفَقَهُ الرغبةَ فى التخمين ومحاولة الوقوفِ على جوهرِ الأمرِ، لم يكفَّ عبرَ مراحل معرفته به، استتجَ أمورًا بعضها أصبحَ معَ الزمنِ يقينًا، من ذلك تأكده أنه التحق بالأزهر من أجل أمرٍ يتعلَّقُ بالأهرام، ومنها أنه لم يُتَمِّدْ دراستَهُ لغرضٍ يتَّصلُ أيضًا بالأهرام، وفى كلا الحالين كان مأمورًا. ليس بوسِعِهِ الرفضُ أو الاختيارُ.

«السائلُ جاهل، لكن.. هل المجيبُ عالم؟»

لا يمكن القطعُ. أحيانًا لا يكونُ بوسعِ المرءِ إلا التساؤلُ والْتِيَهُ عبرَ استفساراتٍ لا نهايةَ لها، هل قصدَ الالتحاقَ بالأزهر للاطلاع على مخطوطات محفوظةٍ بالخزانة الأقبغاوية؟ أو المكتبة الطيرسية؟ أو فى داخل

أحد الأروقة؟ لكن . . ماذا حال بينه وبين تلك الأوراق أثناء إقامته على مقربة من الأهرام؟ يمكن لأي إنسان أن يقصد مكتبات الأزهر ويطلع على ما شاء، إلا إذا كان ثمة نبأ بمخطوط لا يمكن إخراجها إلا لمن يُقيم ويتنظم؟ هل يكمن قصدُه داخل المئذنة؟ فتوسّل بإتقانه الأذان، وجمال صوته وقوة نبره وعدوية ترجيعه، حتى إن كثيرين اعتادوه وانتظروا صعوده، وتطلّعه صوب الغرب ورفع يديه لتلامس أصابعه أطراف أذنيه ورفع الأذان.

هل كان يقصد التطلع إلى الأهرام؟

لو أراد مكاناً مرتفعاً لاتّجه إلى المقطم، كان يمكنه مُلازمة مسجد الجيوشى عند الذروة، أو مسجد الأسباط السبعة. هل كان يبحث عن خبيثة ما؟

«مَنْ يُثَابِرْ يَصِلْ، وَمَنْ يَعْبُرْ حَاجَزَ الْوَقْتِ تَكْتَمِلُ لَهُ الرُّوْيَةُ.»

عندما عرّفه كان يلزم الرصيف قرب باب المزينين الرئيسى، يحتفظ تحته بتلك المخطوطات العتيقة ذات الأغلفة الجلدية السمكية، لم يفارق المكان إلا مرتين، أيام العيدين . . الكبير والصغير، عندما يُحيط رجال الأمن بالموضع كله قبل صلاة العيد يسومين حرصاً على الترعيم الذى لم يخلف صلاة العيد بمسجد مولانا وسيدنا الحسين. الحق . . إنهم عاملوه برفق وهيبة، لم يقسّوا عليه باللفظ أو النظر كما يفعلون مع الباعة الجائلين

والمستكعين، المترددين. كان يجمعُ كُتبه ويمضى فى صمتٍ إلى مكانٍ لا يعرفه أحد.

لم يستفسر. وإن كان الرصيفُ الخالى منه يُثيرُ وحشةً مبكرةً سيظلُّ لها أصداءٌ وترجيعٌ، دائماً يتساءلُ: أى مرحلة عنده لقيه خلالها؟ أى محطٍ فى طريق سعيه إلى الإحاطة بالأهرام.

«بلوغُ المراحلِ نسبيّ»

لم يُفضِ إليه بالغرضِ من مجيئه إلى القاهرة إلا بعدَ سنواتٍ، بعد أن عمقَ التقاربُ، ودنتَ الكينونتان، حدّتهُ فقالَ إنه مغربىٌّ، تمتدّ أصوله إلى قبيلة تقع جنوب الصحراء، من هنا سُمِرَتْه الغامقة وشعرُهُ الأكرت، الجعدُ، ولدَ فى مدينةٍ قُربَ الجبال، وإن كانت تقع فى وادٍ حصينٍ، بحيث يبلغُ الإنسانُ مشارفها، ويكونُ على بُعد أمتارٍ قليلة لكنه لا يرى مبانيها وطرقاتها وميادينها ونواصيها إلا عند دخوله إليها فعلاً.

«كلمةٌ، أو نظرةٌ، أو إيماءة.. ربما تُعيدُ بمصيرٍ وتُغيّرُ مسارَ حياة».

منذ طفولته اختلفَ لطلبِ العلوم والحكمة والأدب إلى شيخ طافَ بلادَ المشرق، ودخلَ أقطارَ الزنج، صحبَهُ حتى صدرَ شبابه، وعندما علِمَ بخروج ركب الحجّ قوىَ عليه الحنينُ فشاوَرَ شيخَه. باركَ عزمه، ورسخَ من أمره. خرجَ طاوياً المراحلَ، ليس بنيتَه إلا أمر الحجّ والزيارة. وصلَ

أَرْضَ الْحِجَارِ مُلَبَّيًّا. مُحْرَمًا، طَافَ وَسَعَى وَشَرَبَ مِنْ زَمَزَمَ، وَقَفَ فَوْقَ
عُرْفَاتٍ وَدَعَا. أَفَاضَ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ. وَبَقِيَ مُلَارِمًا لَهُ. مُصَاحِبًا.
لَحْظَةً وَقَوَعَ بَصَرُهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ عَلَى الْكَعْبَةِ الْمُلْتَحِفَةِ بِرَدَائِهَا الْأَسْوَدَ. وَمَشْهَدِ
الْقَوْمِ الْمُتَجَهِّينِ صَوْبَ الْمُزْدَلِفَةِ، أَرْدِيَتْهُمْ الْبَيْضَاءُ فِي غَمِيقِ اللَّيْلِ، وَالشَّعَابِ
الْمُؤَدِّيَةِ الْغَاصَةِ بِهِمْ، وَالْجِبَالِ الصَّمَاءِ الْمُشْرِقَةِ. أَمَّا مَثُولُهُ عِنْدَ ضَرْيَحِ
الْمُصْطَفَى فَلَهُ شَأْنٌ آخَرٌ. رَجَعَ مَعَ جَمَاعَتِهِ. وَعِنْدَمَا حَلَّ بِوَادِي رَمٍّ بَعْدَ
غَيْبَةٍ، وَقَبْلَ التَّمَاسِ الْرَاحَةِ سَعَى إِلَى شَيْخِهِ الْحَكِيمِ لِيَقْصُ عَلَيْهِ مَا كَانَ مِنْ
أَمْرِهِ. بَعْدَ أَنْ أَصَغَى طَوِيلًا سَأَلَهُ فَجَاءَ:

حَدَّثَنِي عَنِ الْأَهْرَامِ وَمَا رَأَيْتُهُ مِنْهَا؟

تَلَجَّلَجَ، تَرَدَّدَ:

مَا عِنْدِي مِنَ الْمَعَايِنَةِ مَا أُرْوِيهِ، وَلَا أَقْدِرُ أَنْ أَسُوقَ حَدِيثًا صَحِيحًا
عَنْهَا.

أَشَاحَ بِوَجْهِهِ قَائِلًا:

أَخْسِسُ بِهَمَّةٍ لَطَالِبِ عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ، لَا يَتَشَوَّقُ، لَا يَتَشَوَّفُ إِلَى مَعَايِنَةِ
مَا يَكْمُنُ مِنْ عَجَبٍ... أَلَمْ تَعْبُرَ الْقَاهِرَةَ مَرَّتَيْنِ؟

أَوْمَأَ مُجِيبًا. قَالَ الشَّيْخُ:

أَلَمْ يَكُنْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا إِلَّا رَكْضَةٌ رَاكِبٍ، أَوْ دَفْعَةٌ قَارِبٍ؟ إِذَا لَمْ يَكُنْ
ذَلِكَ سُقُوطُ هِمَّةٍ، فَمَاذَا نَسْمِيهِ؟

ثُمَّ أَدَارَ ظَهْرَهُ إِلَيْهِ، وَأَطْرَقَ، فَلَمْ يَكُنْ بُوْسَعُهُ إِلَّا الْإِنْصِرَافَ وَالْمَغَادِرَةَ،

لكن . . منذ تلك اللحظة لم يَطب له مُقامٌ، ولم تلن له ضَجعةٌ، أدرك أن مُقامه في مَسَقَط رأسه انتهى، وأن سنواتِ استقراره وُكِّت، وأنه يجب أن يرحلَ.

«كُلُّ شَيْءٍ مِنْ لَا شَيْءٍ»

فارق وادى زمّ للمرة الثانية، خروجٌ مغاير. مختلفٌ، الأولُ له مدىٌ ومراحلٌ معلومة، والثاني سَعَى إلى مجهولٍ غير مُدْرَك، في الأول دافعٌ نابعٌ من أغواره، في الثاني كأنه مُرغمٌ، لكنه راضٍ أيضًا وعنده تحدٍّ، لابد أن يرجع إلى شيخه بما لم يسمعه من قَبْلُ، مالم يعرفه السابقون، حتى أولئك الذين عاينوها، ودققوا وَصَفَها في كتاباتهم، هكذا سَعَى، مرّ بقرى، ومدن لم يعرفها من قَبْلُ ونزلَ ضيفًا على مَنْ يجهلُ، رَحَّبَ به من لا يعرف. وصلَ برّ الجيزة، عاين أهرامات عديدة. رآها من مسافات متفاوتة، في لحظاتٍ مختلفة، لم يحدّد شيخه هَرَمًا بعينه، سأل عنها كلّها. تعلّق بالأكبر، لم يفارقه منذُ وصوله إلى نزلة السّمان، القرية الصغيرة التي يسكنها أعرابٌ قدامى يطوفون بالأهرام سعيًا إلى الرزق ومنافعٍ أخرى، عندما جاء لم يكن هناك أيُّ مناطق سكنية قريبة. كان الشارعُ العريضُ، المزدحمُ، المؤدّى، مُجرّدَ دربٍ أو جسرٍ أو طريقٍ مهدّته الأقدامُ والقوافلُ، على جانبيه أراضٍ مزروعة، تتخلّلها بيوتٌ صغيرة، ونفَرٌ قلائلٌ يبدون في الفراغ كعلامات الكتابة! حضورُ الأهرامِ مُهيمنٌ، قوى، يُؤطر الموجودات. لم يكن مُزوّدًا بأيّ عنوان. لا يقصدُ شخصًا

مُعَيَّنًا، أو جهةً مُحدَّدة. أو مؤسسة ما، كان على بابِ الله، لذلك لم يشغله هذا قطُّ. لم يؤرِّقه، كان لديه يقينٌ داخليُّ أنه لن يفتقد موضعًا يحتمى فيه من وحشة الليل، وقسوة الانفراد، لن يعدمَ لُقمةً تكفيه، كان مدفوعًا، غير عابئٍ بشيءٍ إلا إمامه بكلِّ ما يمكن أن يُعينه على معرفة الأهرام، والعودة في يومٍ ما، شهرٍ ما، سنةٍ ما، لحظةٍ معينةٍ يمثِّلُ فيها بينَ يَدَيَّ شيخه، وفي الهدوء الذي يَلْفُ وادى رمٍ ليلاً يقصُّ عليه ما أحاطَ به علمًا. كان يقينه الذي يصعبُ وصفه أو إدراكه أن الأمرَ كله لن يستغرقَ وقتًا طويلاً، وأنه سيَبْلُغُ اليوم الذي يشدُّ فيه الرِّحالَ إلى الغرب، إلى العودة. لن يتجاوزَ الأمرُ كله سنةً!

«لا يدرى الإنسانُ أنه مُسافرٌ دائماً، إن في حركته أو ثباته.»

عندما نزلَ القريةَ الصغيرةَ القريبةَ من قدمي أبي الهولِ رأى المئذنةَ البيضاءَ المرتفعةَ فوق البيوتِ كافةً، دالةً إلى المكان الذي يُمكن للجميع دُخوله بدون دعوةٍ أو ترتيب. في اللحظات الأولى لم يثر ظهوره فضولاً، كانوا يؤدون صلاتهم، بعد انتهائهم مضى إلى الإمام، نحيلاً، واثق الوجود. على وجهه رضاٌ وقبول.

غريب؟

أوماً مجيباً، لم يستفسر عن اسمه أو الجهة التي قدَّم منها أو مقصده. هكذا تقضى أصولُ الضيافة المتوارثة، ثلاثة أيام لا يُسأل فيها القادمُ عن شيء، ثم تُقدَّم إليه أصول الخدمة، وبعدَ الثالث يُمكنُ الاستفسار عن

الجهة، والقصد، الشيخُ تهاى لم يلزم الصمت، أفضى بخبره. قال إنه طالب علم وعنده اهتمام بالنجوم، وفي بلده المغربى من علمه أساس الصلة بين الأهرام والفضاءات القصية.

«الوافد من بعيد في نظر القوم غريب، وهم بالنسبة إليه كذلك، فالكافة غرباء.»

لم يُطمئنهم إلا بشاشة الإمام وترحيبه به. حدث منذ أربعين سنة أن ظهر غريبٌ وأقام بالمسجد، وفي الليلة الرابعة فوجئ القوم به يُحاول التسلُّل هرباً بعد خلعه المشكاوات الثلاث التى علّقها الظاهر بيبرس بنفسه منذ سبعمائة سنة عندما جاء لرؤية الأهرام، اعتاد الأهالى إيقاد الشموع داخلها ليلة المولد النبوى الشريف لا غير، لا الحفير، ولا خادم الجامع، ولا سائر الأهالى نسوا ذلك، بستر من الله وتوفيقه كشفوا أمره. أمسكوا به لحظة تأهبه للهرب، إنهم يحذرون الغرباء لأسباب أخرى منها اعتقاد رجال الحكومة بوجود خبايا تحت البيوت، ومداخل سرية إلى مقابر فرعونية لم تُكتشف بعد، لذلك كثرت العيون ورصد الأذان، لم يهدئ خواطرهم إلا إقبال الإمام عليه وكأنه يعرفه، أو كان يتوقع قدومه، حلّوه بينهم، والحقيقة أنه بقدر ما كان الشيخُ تهاى يتطلع برهبة إلى القوم باعتبارهم الأقرب إلى أسرار الأهرام. بقدر ما كانوا ينظرون إليه بخشية وإجلال، هو القادم من المغرب الأقصى. حيث العلوم الغامضة، والقدرة على النفاذ إلى الحُجب غير المرئية، لم يُقلقهم إلا أنه بمفرده، أعزب، لم

يعتد أهلُ النَزَلَةِ على إقامة مثله بينهم، إذ يُصبحُ مَصْدَرًا للقلق، للتوتر، للحذر الدائم، صحيحٌ أنهم يتحدّثون إلى أجنب من كُلِّ جنسٍ وملةٍ يُوجِّرون جمالهم ودوابَّهم ويعرضون مهاراتهم في تسلُّق الأهرامِ أمامهم، بينهم من يُتقنُ عَشْرَ لُغَاتٍ أو أكثرَ باللسان فقط ولا يُجيد كتابة اسمه، لكم حيرته خبراتهم، خاصّة قدرتهم على الصعود السريع إلى الذروة، إلى تلك النقطة التي تنتهى عندها الأحجار كلها وتبدأ اللانهائية التي يصعب إدراكها.

في خلوته، سواءً خلال السنوات التي أمضاها على أطراف نزلة السَّمَان أو رواقِ المغارة بالجامع الأزهر. أو فوق الرصيف المحادى، يستعيد ملامح الإمام فيوقن أنه كان مُدرِّكًا لهدفه، ملَمَّا بغايته، ينطقُ بذلك ما يُصاحب وجهه وملامحه وابتسامته وهدوء ظاهره، الغريبُ أنه لم يذكره مرةً إلا وأدركه حينٌ دامع.

«البقاءُ فى الفناء، والفناء فى البقاء.»

استقرّ فى كوخ من خُوصٍ وجريد نخلٍ عند حُدود النَزَلَةِ، قُرب الطريق المؤدّى إلى أبى الهول، لم يفارق بَصَرُهُ الأهرامَ قدرَ الطاقة، حتى ساعة نَسَخه الخطابات أو عرضِ الحالات التي يُملّيها عليه أهالى النَزَلَةِ الذين لا يُتقنون القراءة أو الكتابة. كثيرًا ما يمر الكبار والصغار بكُوخه فيجدونه مفتوحًا، مُباحًا، لم يُغلق بابَه قط. لا ليلاً ولا نهارًا، لم يكن لديه ما يخشى فقده.

«ما يكونُ قصيًّا في البداية، يُصبحُ قريبًا بحُكم الوقت وقانون المِدة.»

ثلاثة شهور كاملة رنا خلالها إلى الأهرام، خاصَّة الأكبر، هابَ الاقتراب، اكتفى بالنظر من موضع قعوده أمام الكوخ، رأى البُنيانَ العجيب عبر ساعاتِ النهار كُلِّها. حفظَ حَرَكةَ الظلال، تَعاقَبَ الضوء على المستويات المختلفة من البناء. ملامسة أشعة الشمس على الأحجار الضخمة، المختلفة في أوضاعها، المُتفقة، تلك الدعائمُ المستطيلةُ الموحيةُ بمدخلٍ مُغاير لذلك النقب الذي فتحه عُمالُ الخليفة العباسي المأمون زمن قُدومه لجمع الثروة، يُقالُ إن رجاله عثروا بالداخل على مقدار من الذهب يُوازي قيمة ما أنفقَ على فتح الثغرة، لم يعرف القوم مدخلًا آخرًا، لكنه أكَّد أنه بِمُتَابَعَةِ النظر، وتَدقيقِ البَصَرِ واقتفاء دَرَجَةِ انعكاسِ الشُعاع واختلافه من موضع إلى آخر كانَ على وشك تحديِّدِ مدخلين على الأقلٍ لولا وقوع ما لا يمكنه ذكره أو التلميحُ حتى إليه.

«بالمداومة تقعُ الإحاطة، شرطُ الالتزام.»

قال إنه بعدَ مرورِ مقدار غير هَيِّن، اطلَّعَ على الكتابةِ القديمة المحوَّة في الظاهر، ذَكَرَ المؤرخون القُدامي ومنهم المقرئزي في خطِّطه أن الأهرام كان مغطى بِكُسوةٍ وردية عليها كتابةٌ بالقلمِ الغريب، ثم اخْتَفَتْ، لكنها لم تُمَحَ، كانَ ظهورُها مشروطًا بِأُمُورٍ مُعينة، أهمُّها القُدرة على التدقيق، وإدامة النظر في أوقات مُحددة، لكن لصعوبة تعيينها وَجَبَ النظرُ طولَ الوقت. في لحظة ما يبدأ ظهورُها، خفيًّا، هَيِّنًا، كأنها قادمة من أعماق

الماء حتى إذا بلغت السطح توهجت بلألأها الذهبى، تمامًا كسابق عهدها الجلىّ عندما كان يمكن رؤيتها من مسيرة سبع ليالٍ، رآها، تمكّن منها. ألمّ بها جملةً وليس تفصيلاً، فالمدى فسيحٌ، لا يُمكن بلوغه فى عمر أو اثنين لكنه كتب رسالةً صغيرة فى شروط ظهورها، وما يحبُّ اتباعه أودعها متاعه القليل، أكّد أنه درّس أوضاع الشمس، وتعامد أشعتها على الذروة، تلك النقطة التى ينتهى عندها البناء ومنها يبدأ أيضاً، عند انتصاف النهار فى أى يوم من الفصول الأربعة، يكون ما بين القرص الملتهب وتلك النقطة خطّ مستقيم، صريح كحدّ السيف.

«مالا يدركُ بالنظر، ينفذُ إليه القلبُ.»

كلّما ألمّ بجديدٍ ظهر له آخر. وكلّما ظنّ أنه جمَعَ عن الأهرام ما سيُبهّرُ به شيخه أقصى المغرب، ظهر له مثيرٌ حداً به إلى البقاء. معارف شتى صار إليها وانتهت إليه، كان يُصغى ويستفسرُ ويرنو نهاراً ويختلسُ البصرَ ليلاً، وتواتيه فى عمق المنام حللٌ شتى شغَلته زمناً طويلاً خلال نومه حتى دنت تلك اللحظة وحلت، تُشبهُ الرغبة فى امرأةٍ ما، لا يمكن تحديدها، منبثقة من داخلٍ، دافقة، مُحرضة، نارعة، لا فكّك منها ولا حيدة عنها.

هكذا، قام ساعياً إلى الأهرام فى ليلة هادئة، باردة، أبطأ صقيعها إيقاعَ مرور الوقت، جاء الهرم الأكبر من الشرق، كان على يقين أن ثمة

شيئًا إنسانيًا في تلك الأحجار التي تبدو صماء. وأنه لو تكلم فسوف يسمع من مخاطبه.

«تبدو الجبال ثابتة، صماء، لكنها تذوي كل لحظة.»

في تلك الليلة أدرك أمورًا عديدة بعضها يمكن التصريح أو التلميح إليه فمنها:

- استحالة إدراك الأهرام بالنظر عند الوقوف بالقرب منه، في مدى ظله، أما رؤيته عن بُعد فوهم، لأنه لا يبدو على حقيقته.

- استيعاب الارتفاع بالنظر مستحيل، التطلع من أي نقطة يتعارض تمامًا مع زوايا ميل الأهرام.

- البناء أشمل من إدراكه بظرة واحدة، لذلك أينما وقف الإنسان، أينما تطلع فإنه لا يدرك إلا جزءًا من كل. توقف عند أماكن بعيدة، بعضها مرتفع مثل تلال المقطم، والفسطاط، والضفة الشرقية للنيل، وقف في كل موضع مددًا متفاوتة في الوقت، متساوية في مدته، كل مرة يرى مشهدًا مختلفًا عما رآه في المرات السابقة، بل إن ما يطالعُه عند انتهائه بغاير لما يراه في البداية.

«الأمر نسبي، الأمر نسبي.»

تلك الليلة وقف تحته مباشرة، طاف به، هاله ما بدا عليه من حجم

غير مألوف، مُندمج بالليل فكأنه جزءٌ منه أو امتدادٌ له، بتأنٍ بدأ قياس الضلع الشرقي، استوثق مواجهة كلِّ ضلعٍ لجهةٍ أصليةٍ، أما الارتفاعُ فلا يُمكنُ إدراكه بالتطلُّع، يظلُّ المرءُ قلقًا، متأرجحًا، مُوزعًا بين الشروع والبلوغ، بين التخطيطِ والتنفيذ، لا يتجاوز أبدًا.

منذُ تلك الليلة بدأ يتجهُ ببصره إلى الأهرامِ حتى وإن توارى عنه، لكنه تقلقلَ واهتزَّ عندما شرَعَ في التَّثبتِ.

«الإنسانُ راجلٌ، والوقتُ راكبٌ، فكيفَ يلحقُ العابرُ بالأبدى؟»

بعدَ تأكُّده من مُواجهة كلِّ ضلعٍ لجهةٍ أصليةٍ بدأ القياس. إلا أن اضطرابه بدأ عندما شرَعَ في المحاولة الثانية للتأكد، بعدَ المرة الثالثة أيقنَ من الفرق. الاختلافُ أمرٌ لا يقبلُ الشكَّ. ثلاثة أيامٍ لم يجرؤ على تكرار المحاولة. شكَّ خلالها في أمره، في اسمه، في انتمائه إلى البلد القادم منها، بل.. والمقيم فيه. غابَ عن ذاكرته وادى زَمَ بما حوَّاه من وأجهاتٍ ونواصٍ وقممٍ أشجارٍ وصفاءٍ جوٍّ، وملامعٍ أحبةٍ، صارَ يسألُ نفسه: أحقًا سعى ههنا؟ هل تبع شيخه إلى درجة الخروج عن الأوطان؟ أحقًا جرى ذلك؟ لم يتوقف عن المحاولة. في المرة السابعة والتي جرتَ بعد انقضاءِ شهرٍ قَمَرِيٍّ فُوجئَ بتطابقٍ دقيقٍ مع نتيجة المحاولة الأولى. لكن في الثامنة اختلفت تمامًا.. أذهله ذلك الاختلافُ البينُ في شيء محسوس.

«الألفةُ في غيرِ الوطنِ تُذهبُ باليقين.»

تلكَ فترةٌ وعرةٌ، ذَرَفَ خلالها دَمْعًا خَفِيًّا، كُلَّمَا عَانَى ضَغْطَةً وَحْدَتَهُ، وشِدَّةَ فَرْدَانِيَّتِهِ، غيرَ أَنَّ مُجَرَّدَ وَقُوعِ عَيْنِيهِ عَلَى الأهرامِ يَبُثُّ دَاخِلَهُ سَكِينَةً، يَسْتَسَلِمُ لِلنَّظَرِ، إِلَى مَهَابَةِ التَّكْوِينِ، إِلَى اسْتِعَادَةِ مَا جَمَعَهُ عَنْهَا مِنَ الْقَوْمِ، عَنْ حُرْمَتِهَا الْمُتَوَارِثَةِ، عَنْ تَفَحُّمِ أَى رَوْجٍ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى دَخَلَ إِلَيْهَا وَحَاوَلَا الإِتْيَانَ، عَنْ وَجُودِ طَيُورٍ غَامِضَةٍ تُرْفَرُ فِي فَرَاقَاتِهَا، عَنْ طَلَّاسِمٍ مُعْدَّةٍ مَا تَزَالُ فَاعِلَةً، أَمْرُهَا مُجَرَّبٌ. مَا زَالَ الْإِهَالَى يُكُونُ رَهْبَةً واحترامًا لِكُلِّ مَنْ يَدْنُو أَوْ يُبْدَى اهْتِمَامًا، لَكُنْهُمْ لَمْ يُفَضُّوا بِأَسْرَارِهِمْ وَمَا يَعْلَمُونَهُ إِلَى غَرِيبٍ عَنْهُمْ، خَاصَّةً الطَّرِيقَ الْمَرْتِيَّةَ، الْخَفِيَّةَ الَّتِي يَسْلُكُونَهَا فِي اتِّجَاهِ الْقِمَّةِ. مِنْ تَخَصُّصُوا فِي ذَلِكَ اعْتَبَرُوا هَذَا سِرَّهُمُ الْمَكِينِ، لَقَنُوهُ عَلَى مَرَاحِلٍ لِأَبْنَائِهِمْ أَوْ ذَوِيهِمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَاحَتْ عَلَيْهِمْ عَلَامَاتُ النِّجَابَةِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلطَّلُوعِ.

«كُلُّ نَفْسٍ تَائِقَةٌ.»

ثَلَاثُ لَيَالٍ، فِي الْمَوْعِدِ عَيْنِهِ. جَاءَهُ شَيْخُهُ بِنَفْسِ الْهَيْئَةِ الَّتِي تَرَكَهُ عَلَيْهَا فِي وَادِي زَمٍّ، أَشَارَ إِلَى الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ، وَكَلَّمَاهُمْ بِالسُّؤَالِ رَفَعَ إصْبَعَهُ فِي اسْتِقَامَةٍ لَا تَقْبَلُ الْجَدَلَ. يَأْمُرُهُ بِغَيْرِ نُطْقٍ أَنْ يَنْتَظِرَ هُنَاكَ لِحِظَةً يَزُورُهُ فِيهَا.

صَبَاحَ اسْتَيْقَظَ فِيهِ قَلْقًا، غَامِضًا، مُنْقَطِعَ الْأَسْبَابِ بِمَوْضِعِ إِقَامَتِهِ، وَصَلَ إِلَى لِحِظَةِ فَاصِلَةٍ، كَانَتْ مَلَامَحُ شَيْخِهِ نَاصِعَةً، تَسُدُّ عَلَيْهِ جِهَاتِهِ. تَحُولُ دُونَ وَرُودِ أَى خَاطِرَةٍ عَلَيْهِ، إِشَارَةٌ يَدُهُ تَدُلُّهُ وَتُنْذِرُهُ، تُرْشِدُهُ إِلَى

الأهر، وتُحدّره ألاّ يحيد ببصره عن الأهرام. قطع المسافة الفاصلة مَشياً. ما بين الهضبة والجامع، لَزَمَ الصحن، أصغى إلى الشروح والتفاسير، أعجب القوم ترتيله للقرآن بالطريقة الأندلسية القديمة، وكذا رفعه الأذان بنفس النغمات التي تردّت في قرطبة وغرناطة وشنترة وماتزال في بعض أحياء المغرب القديمة بفاس ودكالة وطنجة وكذلك وادي زمّ، وغيره من النواحي والجهات. من أسعد مراحل تلك التي بدأ فيها الصعود إلى المئذنة وتطلّعه إلى بهاء الأهرام التي ينتهى عندها الأفق، ويقع الخطّ الفاصل بين الأرض والفراغ العلوى.

«كُلُّ طريقٍ يُؤدّي حتماً إلى طريق.»

لم يحد قطّ عن الأهرام، إمّا بالنظر مباشرة، أو بتطلّع القلب أوقات هجومه، أو استناده إلى أحد الأعمدة في الصحن الأعظم، أو جلوسه للمذاكرة داخل رواق المغاربة، غير أنه طوال تلك السنوات كان في حالة انتظار خفية تارةً وجليةً أخرى، إلى أن وفد عليه شيخه مُرتدياً البياض، عبّر الصحن من جهة الشرق إلى الإيوان الغربى، كان يجلس تحت المزوكة الشمسية، شخص إليه ببصره وكيّنوته تلقى عنه الأمر بالانتقال من داخل الجامع إلى مُحاداته، إلى الرصيف المحيط، وبدء الاشتغال بالكتب انتظاراً ليوم ما يحلّ عليه ضيفاً من بحورته مخطوط عتيق، فيه الشرح والتفسير لكل ما استعصى عليه من حروف غامضة بانت له مع مداومته التطلّع إلى الأهرام. عليه بالصبر، وعدم الحيدة، هكذا.. استقرّ في موضعه، ظهره

إلى جدارِ الجامع، وعيناهُ باتجاه الغرب، صارَ يتسبّعُ ما يجرى داخلَ
الأزهر، وتنقلُ زملائه الذين حصلوا على الإجازاتَ ودرَجوا في المشيخة،
وصارَ كل قادمٍ أو ساعٍ إلى كتابٍ يحوى احتمال كونه ذلك الآتى
بالمخطوط المنتظر، لذلك لم يَصُدَّ ولم يعبسَ فى وجه امرأة أو صبي أو
عجوز. . فمن أينَ له أن يدرى. ورغمَ انتظاره، والمتنّظر قلقٌ دائماً، غيرُ
مُستقر، فإنه ظلَّ شأخِصاً دائماً إلى ناحية الأهرام، وكثيراً ما تأخذه رَجْفَةٌ
يجتهدُ لإخفاء أعراضها إذ يقوى عليه حضور هذا البناء، المهيمن،
المشرف، المُلغز، المُحيط، الدالُّ، الجلىُّ، الغامِضُ، الراسِخُ، الصّاعدُ،
الثابتُ السارى، القريبُ فى بُعدِه، البعيدُ فى قربه.



مَتْنُ ثَانٍ

إِيغَال

... وفى هذه السنة شاع أمر فتية الأهرام، قيل إنهم سبعة عُرِفوا بتقاربهم، وامتزاج أهوائهم، وترحالهم صُحبةً وشُرُوعهم معاً.

لَكُمْ شُوْهِدُوا معاً، من سُوقِ الحَمَامِ إلى سُوقِ الشَّمَاعِينَ، ومن شارعِ العُطُورِ إلى النّحَاسِينَ، ومنَ الحَيَّامِيَةِ إلى السُّيُوفِيَةِ، ومنَ المَقْطَمِ إلى القَنَاطِرِ، ومَقْهَى الخَلَاءِ، إلى مَقْهَى المَدِينَةِ. كانوا طُلَّابَ عِلْمٍ، أَهْلَ ثِقَّةٍ، وإِقْدَامٍ، وَجُرْأَةٍ عَلَى المَغَامِرَةِ، وكَثِيراً ما خَرَجُوا صُحْبَةً إِلَى الصَّحَرَاءِ أو الرِّيفِ القَرِيبِ، كانوا مُقْبِلِينَ، وَالْوَقْتَ أَمَامَهُمْ.

عندما عَزَمُوا أَمْرَهُمْ، وانتهوا إلى تَحْوِيلِ قَرَارِهِمْ مِنْ فِكْرَةٍ إِلَى خُطُواتِ حَقِيقَةٍ، أَطْلَعُوا أَحِبَّائَهُمْ، طَافُوا بِشُيُوخِهِمْ يَلْتَمِسُونَ الإِذْنَ وَالبَرَكَةَ. تَفَاوَتَتْ رُدُودُ الفِعْلِ، فَقَلِيلٌ شَجَّعَ وَآزَرَ، وكَثِيرٌ حَذَّرَ وَأَنْذَرَ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَفُتْ، وَلَمْ يُثْنِ.

كَانَ خُرُوجُهُمْ مَشْهُوداً، وَمَا زَالَ كَثِيرُونَ يَذْكُرُونَ بِهَجَّتِهِمْ، وَحِلَاوَةِ تَضَامُّهِمْ، وَرَقَّةَ مَرَحِهِمْ، لِحِظَاتِ صَعُودِهِمُ الأَحْجَارَ وَتَلْوِيحِهِمْ، لِلوَاقِفِينَ، المَرَاقِبِينَ، الشَّائِخِصِينَ. التَّفَاتَةُ كُلُّ مِنْهُمْ قَبْلَ دُخُولِهِ، قَبْلَ عُبُورِهِ النَّقْبِ الذِّى أَحَدَتْهُ الخَلِيفَةُ المَأْمُونُ. تَطَّلَعَ كُلُّ مِنْهُمْ جِهَةَ الشَّرْقِ، إِلَى الجَمْعِ وَمِنْهُمْ أَهْلٌ، صَاحُوا مُنَادِينَ وَمُشْجِعِينَ وَمُودِّعِينَ.

الحَقُّ أَنَّ أَمْرَهُمْ شَاعَ فِيمَا بَعْدُ أَكْثَرَ، عَزَمَهُمْ أَلَّا يَرْجِعُوا قَبْلَ الوُصُولِ إِلَى صَمِيمِ الأَهْرَامِ المَتِينِ، القَصِيِّ المَكِينِ. أَخَذُوا مَعَهُمْ مَا يَلْزَمُهُمْ مِنْ زَادٍ وَحِبَالٍ وَأَدَوَاتٍ تُمَكِّنُهُمْ مِنْ ارْتِقَاءِ الجُدُرَانِ أو التَّزَوُّلِ فِي المَهَاوِي،

وأعشابٍ وأخلطٍ لمداواة الجروح، أما التغلب على الوحشة والرغبة فجعلوه من شئونهم.

يؤكد البعض أنهم خالطوا كل من له صلة بالأهرام، خاصة الذين أوغلوا داخلها إلى مسافات متفاوتة، وأمضوا أوقاتاً في مهاويها أو مراقبيها، وأن ما شرعوا فيه لم يكن نتاج نزوة، إنما ثمرة تخطيطٍ وتدبير.

يؤكد آخرون أنهم مضوا بدون أى فكرة مسبقة عن الشعاب الغميقة فى الداخل البعيد، أقدموا غير مزودين إلا برغبة هائلة فى المعرفة، والوصول إلى تخوم المجهول، لو توفّر لديهم قدرٌ لما أقدموا فالإحاطة بأمرٍ مُقلقة، ولو اطلع المرء على الآتى لاختار الحالى، القائم، هذا حق لكن المؤكد أن ما أقدموا عليه كان مغيراً، لم يسبقهم إليه أحد.

يلى النقب مرتقى دهلزى صاعدٌ بميلٍ خفيف لا يبدو مجهداً، وعراً تسلقه حتى يُخيل للكثيرين أنه مستو، لن يكلفهم من أمرهم عسراً. ولجوا مَرَحِينَ مُتَوَثِّبِينَ، مُتَطَلِّعِينَ، كانوا مُضْطَرِّين إلى الانحناء، الارتفاع لا يسمح لمتوسطِ القامة أن يفرد طوله، كانوا يعرفون ذلك، مُدْرِكِينَ إلى ضرورة انحنائهم لمسافاتٍ طويلة، تطلع كل منهم إلى الأمام، خاصة أولهم الذى لم يكن أكبرهم سناً ولا أكثرهم تجربة، إنما كان الأشد حزمًا والأظهر اتزانًا، وأثناء الإعداد أجمعوا على تسليمه أمرهم، والمرء يحتاج

دائمًا إلى من يدلُّه أو يُرشده، تستوى الحاجةُ إلى ذلك فى شتى مراحلِ العمر، تتغيرُ الدرجةُ فقط، أحيانًا يكونُ إنسانًا يسعى أو كلمات قديمة فى كتاب مُدَوَّن، أو وصايا محفوظة، متناقلة. كان أولهم ثابتًا، يبدو هادئًا، راسخًا، قويًا على مواجهة البغثات، لم يختلف أمرهم، فتلك المسافات أمرها معروفٌ، بعضه مُدَوَّن.

ما خالَجَهُمُ ذلك القلقُ المصاحبُ للشُّروع، للبداية، للانتقال من حالٍ إلى حال. الإقدام على قَصْدِ المجهول يُثيرُ المرءَ أيًا كان، لكنه اجتهدَ فى إخفاء ذلك. إنه الوحيدُ الذى لم يَلْتَفِتْ إلى الخلف عند الوصولِ إلى نُقْطةٍ وَهْنِ عِنْدَهَا الضوءُ الوافِدُ من الخارج، أصبحَ بعيدًا، صدى الصدى، خطوةٌ واحدةٌ فقط ويختفى، خاصَّةً مع مَيْلِ الممرِّ إلى اليسار. يبدأ ضوءٌ آخرٌ، هادئٌ، خافتٌ، حَيَّرَ السابقينَ واللاحقينَ لأنه مجهول المصدر، لا يقوى هنا أو يضعف هناك، لا يُكوْنُ ظلالًا للموجودات القائمة، أو الأجسام المتحركة العابرة، فكأنه يخترق ما يعترضه، وهل رأى أحدٌ ظلًّا داخلَ الأهرام. هل أخبرَ مَنْ دَخَلُوها بذلك؟

عندَ تلك النقطة الفاصلة يلتفتُ كُلُّ منهم بتلقائية، ربما لإلقاء نظرة على آخر مَلَمَحٍ من واقع معروف، مألوف، حتى وإن احتوى على مجهولٍ، غير أن ما يسعون صُوبَهُ أشدَّ غموضًا، فالأمر دائمًا نسبيٌّ.

مع تَقَدُّمِهِم عبرَ الفراغِ مجهولِ الإضاءة تقاربوا أكثر بقدرٍ غير ملحوظ، لكنهم انتبهوا إلى ذلك فيما بعد، وعندما ارتفعت أصواتهم قال أولهم إنه منذ الآن سوف يكونُ الضحك بحسابٍ، والحديثُ بقدر، كلُّ جهدٍ مَبْذُولٍ

يَسْتَهْلِكُ قَدْرًا مِنْ الطَّاقَةِ، وَتِلْكَ تَعْتَمِدُ عَلَى الْهَوَاءِ... وَبِالطَّبْعِ، الْمَتَيْسَّرُ مِنْهُ فِي الدَّخْلِ غَيْرُهُ فِي الْخَارِجِ.

لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِغَرِيبٍ عَلَيْهِمْ، سَمِعُوا ذَلِكَ فِي أَيَّامِ التَّجْهِيزِ وَالْإِعْدَادِ، قَبْلَ عُبُورِهِمْ مِنْ وَاقِعٍ إِلَى وَاقِعٍ، مِنْ عَالَمٍ يَعْرِفُونَهُ إِلَى آخَرٍ لَا يَلْمُونَ بِمَسَارَاتِهِ وَتُخُومِهِ، كُلُّ مِنْهُمْ بَدَأَ مَعَ كُلِّ مَرَحَلَةٍ، بَل... كُلِّ خُطْوَةٍ وَكَأَنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُذَكِّرُهُ بِمَا أَلَمَ بِهِ قَبْلَ عُبُورِهِ النَّقْبَ، إِلَى اسْتِنْهَاضِ الْبَدِيهِيَّاتِ الَّتِي تَدَاوَلُوهَا، وَحَفَظُوهَا قَبْلَ شُرُوعِهِمْ، لَكِنَّ... هَذَا أَمْرٌ مِنْ جُمْلَةِ الطَّبَائِعِ، فَرَقٌّ كَبِيرٌ أَنْ يَقْرَأَ الْإِنْسَانُ أَوْ يَسْمَعَ. وَيَبِينُ أَنْ يُعَايِنَ وَيَعْرِفَ.

بَعْدَ اجْتِيَاظِهِمُ الْمَرَّةَ الْأُولَى، وَدُخُولِهِمْ إِلَى الْمَرْقَى التَّالِي، تَزَايَدَ الْمَجْهُودُ الْمَطْلُوبُ لَكِنْ بِقَدَرٍ مُحْتَمَلٍ. الْمَقَارَنَةُ بَيْنَ مَرَحَلَةٍ وَأُخْرَى، كِلَاهُمَا دَاخِلَ الْهَرَمِ، وَهَذَا مُسْتَجِدٌّ، وَعِنْدَ وَصُولِهِمْ إِلَى الْغُرْفَةِ الْمُرَبَّعَةِ الَّتِي كَانَتْ تَرْقُدُ دَاخِلَهَا الرَّمَّةُ الْبَالِيَةُ دَاخِلَ الْحَوْضِ الرِّخَامِيِّ تَطَلَّعُوا إِلَى بَعْضِهِمْ، رَغْمَ قِصَرِ الْمَدَّةِ الْمُنْقَضِيَةِ إِلَّا أَنْ كَلَّا بَدَأَ وَكَأَنَّهُ يَرَى الْآخِرَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، رُبَّمَا بِتَأْثِيرِ الضَّوِّ الْغَامِقِ، أَوْ لِأَنَّهُمْ يَتَوَاجَهُونَ بَعْدَ تَقَاطُرِهِمْ بِحَذَرٍ، كَانُوا يَفِيضُونَ نَشَاطًا وَحَيَوِيَّةً، غَيْرَ أَنَّهُمْ بَدَّوْا حَذَرِينَ، يَكْبَحُ كُلُّ مِنْهُمْ رَغْبَةً مَا، إِمَّا فِي الْحَدِيثِ أَوْ الضَّحْكِ، أَوْ التَّعْلِيْقِ عَلَى بَعْضِ مَا مَرَّ بِهِ. لَمْ يَتَذَمَّرْ أَحَدُهُمْ، حَتَّى ثَالِثَهُمُ الْأَصْفَرُ سِنًا وَالْأَضْعَفُ بَنِيَّةً، أَرْقَهُمْ حُضُورًا، غَيْرَ أَنْ يَقِينَا خَفِيًّا لَدَى مَعْظَمِهِمْ أَنَّ ثَمَّةَ تَغْيِيرٍ وَقَعَ، رُبَّمَا فِي الْمَلَامَحِ، فِي النِّظَرَاتِ، فِي التَّطَلُّعِ، غَيْرَ أَنَّ الْمَبْرَرَاتِ عَدِيدَةً وَمُقْنَعَةً، مِنْهَا طَبِيعَةُ ذَلِكَ الضَّوِّ، الصَّعُودُ الْبَطْيُ الْمُدْرَكُ بِتَسَارُعِ الْإِنْفَاسِ وَزِيَادَةِ الْجُهْدِ الْمَبْذُولِ. غَيْرَ أَنْ

تقديرهم للوقت بدا مُحيرًا، بعضهم خُيِّلَ إليه أن وقتًا طويلًا مضى، وآخرون كانوا على يقين أنهم لو عادوا واجتازوا النقبَ من داخلٍ إلى خارجٍ فلن يجدوا شمسَ يومٍهم الأولِ متقدمةً كثيرًا في السماء، ربما لم تبلغَ منتصفَها بعدُ.

أولُّهم تحدَّثَ عن ذلك فيما بعدُ عندَ نقطةٍ مُتقدمة، قال إنه على يقين أن للأهرامَ ناموسَها الزماني والمكاني المغايرَ، الخطوة لها قياسٌ خاصٌ، الزمنُ إيقاعه مُغاير. أولاً.. ما من شروقٍ أو غروبٍ مُدركٍ هنا، ما من صُبحٍ أو ظُهرٍ، لا وجودَ للأصيلِ أو الضُحى، لا ضوءٌ يتغيَّرُ أو ظلالٌ تتعاقبُ أو تتوارى، وأن ما يُخيِّلُ إليهم أنه انقضاءُ ساعةٍ في الداخل ربما يُوازيه مُرورُ شهرٍ في الخارج، وربما أكثر، أدهشهم ذلك لم يعلقوا، حتى عندما طالبَ مَنْ يُفكِّرُ في الانثناءِ والعودةِ ألا يدهشَ إذا لَقِيَ رَمَنًا مُغايرًا تمامًا لما يَعْرِفُ وَالْفَ.

لم يَطلْ مكثُهم في الحجرة المربعة. اتجهوا إلى الفتحة الموجودة، في نهايتها ازدادَ انحناءُهم عند عبورها، وطبقًا لما دَوَّنه أصحابُ التجارب السابقة فلا بدَّ أن تتسع المسافةُ بين كُلِّ منهم، فيما بعدُ قال ثالثهم إن أولَ هبَّاتِ الحنينِ والتذكُّرِ وَرَدَت عليه أثناءَ جلُوسِهِم متواجهين داخلَ الحجرة المربعة، هلَّت على فؤاده رائحةُ شجرةٍ تينٍ عتيقة، تتدلى أطرافُ أغصانها لتلامسَ مياهَ ترعةٍ عميقة، كان يعبرها يوميًا ويتذوقُ ثمارَها، لمحةً عابرةً، مارقةً، لم تعنِ عندهُ شيئًا في البداية، لحظةٌ وقوعها، لكنها صارت فيما بعدَ محطةً غيرَ مرئية، يُطيلُ الرُّكُونُ إليها كلما أوغَلَ يكتشفُ من خلالِ استعادتها ما لم يَقِفْ عليه لحظةً وقوعها. هنا.. في هذا الحيزِ الضيق.

المحدود في الظاهر، يُدرك ما لم يستوعبه بالنظر المباشر في الخارج. كثيراً ما لا يكون الاستيعاب لحظة السماع أو النظر إنما يتم الأمر كله عند الاستعادة بالخيال، ويبدو التفسير الذي استعصى أمره زمناً، يبرق مع اللحظة المستعادة من بين ثنايا الذاكرة، ترسخ ذلك مع تقدّمهم، إيغالهم.

بدا ارتقاء الدهليز التالي مختلفاً، المنطلق مغاير، والخطو ذو دلالات أخرى، في الأول كانت نقطة الارتقاء تبدأ عند النقّب، عند الفتحة الفاصلة بين الخارج والداخل، بين عالمين، لكن الانتقال الآن، من داخل إلى داخل، عبر ذات التكوين، فالمغايرة تتم في إطار الدرجة وليس النوعية، هكذا بدا لهم الأمر في البداية.

التقدّم في الدهليز الثاني يقتضى وضعاً مختلفاً، في الأول كانوا متقاربين، بوسع كل منهم لمس الآخر لو مدّ ذراعَه، لكن هنا لابدّ من قطع مسافة، ربّما خطوتين أو ثلاثاً، لكنها مساحة، أحياناً تمرّ لحظة لا يمكن لأى منهم أن يرى الآخر، لكن يُخفف الإحساس بالوحدة المباغثة سماع الحركة، والإصغاء إلى الخطو، غلبَ على كلّ منهم الانشغال بالنفس، وإن راح الفكرُ إلى الآخرين فإنه جزءٌ من الاهتمام بالذات، سلامته جزءٌ من سلامتهم، وما قد يلحق بالآخرين يمكن أن يلحق به، وما يعرض لأولهم سيلحق بآخرهم. كان الشعور بالقربى أقوى في المرحلة الأولى، قبل بلوغهم الغرفة المربعة الأولى، وهنّ بدرجة ما، يدركون أنّ آخرين سبقوهم إلى هذا المرتقى، حتى هذا الجزء كانت خطى سابقة مرّت، رغم ذلك فإن قلقاً خفياً حوّم، المكان غير مطروقٍ بقدر كافٍ، المفاجأة قد تقع في أى لحظة بغتة.

رغم المحاذير، إلا أن بهجة سَرَت، خاصة مع الشعور الدائم بالارتقاء، وعى خفى أنهم يصعدون إلى أعلى باستمرار رغم أن درجة الميل لاتكاد تلاحظ، ثمة صعود يتم صوب نقطة غير مرئية، غير مدركة. غير محدّدة، لا يمكن تعيينها، أو الإشادة حتى إلى الجهة الواقعة ضمنها. لم يصفها أحدٌ من قبل، نقطة ربما تتغير بالنسبة لكلٍ منهم، فلا تجمعهم عندئذٍ إنما تفرقهم.

كافة الاحتمالات قائمة.

الفراغ الداخلى لا علاقة له بقياسات الخارج، يبدو حديثٌ أولهم أقرب إلى الأفهام الآن، هنا. . المكان غير المكان، كذلك الوقت، ومن يخيل إليه أنه أمضى يوماً بالقياس إلى ما عرفه، ربما يكتشف عند رجوعه، اجتيازه النقب من داخل إلى خارج، أن زمنا طويلا قد انقضى، لن يتعرف عندئذٍ على المعالم والملامح، لن يجد ما يأتس به إلا الأهرام فينثنى عائداً، موغلاً إلى أمدٍ لا يدرى قراره، تماماً كما يجهل القوم منتهى هذا البناء، وغاية عمادته.

مع تمام إدراكهم بالطلوع ينمو أيضا يقينهم أنهم معلقون، ولو أمكن لبصر اختراق الحجر لرآهم فى صميم الفراغ، رغم صلادة الأحجار، وتقارب الجدران، رَسَخَ يقينهم بمقدمهم الذى لم تبدر منه إشارة تنم عن خشية أو تردد أو قلة يقين، استكانوا إلى وجوده فى المقدمة مع أنه صارحهم أن معرفته بالأعماق لا تزيد عما أحاطوا به إلا قليلاً، وأن ذلك قاصر على مسافة محدّدة طَرَقَهَا البعض قبلهم ودوّنوا بعضاً من

ملاحظاتهم، حتى هذا النزول اليسير وجده بالمعاينة مختلفا بقدر، أفضى إليهم بذلك عند بلوغهم الغرفة الأولى، لكنهم نسوا هذا كله. أو تجاهلوه، وأبدى كل منهم ما يؤكّد أنهم يוכלون أمرهم إليه بالكلية. حتى أنهم عند توقّفه ينتظرون ما سيقدم عليه، وما سيكّون منه.

لحظة وصولهم إلى الغرفة الثانية ابتهجوا. بدا على ملامحهم الارتياح. ثمة مرحلة تَمّت، وخروج من دهليز، وانتباه إلى تيار هواءٍ سارٍ، خفى المصدر، غامض الوجهة لكنه مطمئن، منعش.

أطالوا النظر إلى بعضهم، كأنهم يتعرّفون إلى بعضهم لأول مرة، قبل استغراقهم، وبدء استعادتهم الخطى وإبداء الملاحظات على ما عاينوه، قال مُقدّمهم، إن البقاء مستحيل، ولا بد من المواصلة، وهذا ما أوصى به كل من بلغ هذه النقطة من قبل، وليتبهوا.. فالمرتقى الثالث آخر ممّر مطروق من قبل، بعد انتهائه سيلجون مواضع، لم يرد ذكرها من قبل، ولم يجرؤ على اقتحامها أحد، لم يقل إنه ربما حاول البعض لكنهم لم يرجعوا ليخبروا بما اطلعوا عليه، ربما لأنه لم يكن على يقين، لمن يكن من صفاته الإخفاء أو المداورة، كان صريحا، واضحا كالشهيق.. هذا إلى جانب عوامل أخرى مما طمأنهم وبث ثقة في نفوسهم، تأملوه خلال لحظات تقابلهم أكثر مما تأملوا نقوش الغرفة الساطعة بألوانها، وتلك الحروف الغامضة والتي تبدو كأنها في حركة دائمة من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى.

كانت العرّة الفاصلة بين المرتقى الثانى وبداية الثالث مستطيّة، تخلو

من أى حوض رخامى أو خشبى، جدرانها مغطاة تماماً برسوم وتصاوير يتخللها ما يُشبه الحروف، ليست يونانية أو سريانية.. وبالطبع ليست عربية خيّل إليهم أجمعين أن مقدّمهم يدرك بعضا من أسرارها إن لم يستوعبها كلّها، غير أنه بدا حائراً أمام بعضها، لم يخف ذلك، قال إن ما نقش على الجدران الخارجية لا علاقة له بما يراه هنا وهذا محيرٌ.

لم يطلّ مكثهم، لم تتشعب استفساراتهم، كان امثالهم تاماً. كافة الأقاويل المتوارثة، والسطور الشحيحة المدونة تنصح بسرعة الانتقال، والحذر من تلويثها، أو التفوه باللفظ الخشن، أو إتيان الفعل الفاضح، يعلم الكافة مصير كل رجل وامرأة شرعاً. حكى القدامى عن دخول شاب وصاحبه بغرض الخلوة فتحولوا إلى رماد منطفى. مرة أخرى صحب أربعة رجال غلاماً جميل الصورة، وبمجرد شروعهم تيسوا جميعاً. تحولوا إلى أحجارٍ ممسوخة.

هذا معروفٌ، مَقْطوعٌ به.

ما يجبُ الانتباه إليه، تَغْيُرُ الهواء وثقله، بما يؤدّى إلى غَلَبَةِ النوم، مَنْ يغفُ لحظة فلن يفتحَ عينيه مرة ثانية.

ليسَ الوَسْنُ أخطرَ ما يتهدّدُ العابرين، لكنها الأحلامُ المصاحبة، حيث تبدو وجوه أنثوية مفتقدة عندهم، عذبة، جميلة. عيون شرهة فياضة بالرغبة، شفاه ساعية، وجنات متوردة داعية للقطاف، وأصوات هامسة، مغناجة، ملهية للأعصاب المدسوسة. ألوان لا مثيل لها فى عالم الحسّ، لا يَمَكُنُ تحديدها أو تصنيعها أو نسبتها إلى الأزرق أو الأحمر أو الأصفر،

تمرق خلالها لحظات اندماج شعشاعية متأججة، قادمة من العدم اللامرئى إلى الحضور العابر فتتبعه وتثبت فيه دَقُّاً لا يمكن الصمودَ تجاهه أو استيعابه فتكون الرقدةُ الأبديةُ لم ينصحهم باتباع خطواتٍ معينة، أو تلاوة نصوص مقدسة، أو اللجوءِ إلى لحظاتٍ موازية.

على كل منهم أن يواجهَ بمفرده كافة المغريات، المثبطات، وربما هذا سببٌ لكمونٍ كلٍ منهم لتباعده عن الآخرين، ليس بالمسافة فقط، ولكن بالحس، فما يجب مقاومته خلال هذا المرتقى يمثل فى الداخل، ولا يأتى من الخارج.

أربعة وأربعون هوة سحيقة، يلزم لعبورها إفساح الخطى، وأحياناً القفز، احتياطٌ مُقدمٌهم لذلك فربطَ خَصَرَ كل منهم بحبل يشده إلى الآخرين، حتى إذا زلَّ تعلق مصيرهم به فيضطرون إلى بذل الجهد لرفعه أو اللحاق به.

لا شك أن طبيعة الضوء تغيرت خلال اجتيازهم ذلك المرتقى، يمكن القول إنه ضوءٌ ولا ضوء. عتمةٌ لا تحجب مواقع الخطى غير أنها جاثية، أسباب عديدة أدت إلى ترسيخ اليقين بمهابة الفراغ ولا نهائيته أيضاً. أما الرائحة فكانت مغايرة. إنها أكثر ثقلًا، لكنها ليست خاملة، عطنة، رائحة غامضة تثير الخلايا وتخيف أيضاً، تومئ إلى مجهول يصعب إدراكه. مازال الإحساس بالصعود قويًا، ربما ساعدَهم ذلك بدرجة ما على مقاومة النوم، وتلك الرؤى، استلزم الأمر جهداً أدى إلى تسارع الأنفاس، ومغالية الجهد.

أصعبُ ما واجهَ مُقدمهم، أولهم، دليلهم، الملمَّ بما دَوَّنه القُدَامى،
أشَقَّ ما فُوجئ به تلكَ الأصواتِ الآدمية، الأنثوية. الناعمة، المبتوثة،
تتخللُ لحظات الانتقال من اليقظة إلى مشارف النوم، التَّأرجُحُ خلالِ
اليقظة الحتمية التى لا مفر منها، لم يدرِ المصدر بالضبط، إذ تسرى
النفمات خلال المسام من خارج إلى داخل، ومن داخلٍ إلى خارج،
أصواتٌ تُلوح فى البداية متداخلةً، يمكن تمييز كل منها مع التدقيق
والإصغاء الذى يعنى الاستسلام لوطاة الوَسْن، فى درجاته يبدو التثنى،
الرحابةُ والتَمَكُّن، لحظاتُ الذروة السابقة على انطفاءِ الشَّبَق، وتمامِ
الأرب.

لكن بلوغها هنا. فى تلك المنطقة من داخلِ الأهرام يعنى التَّبَدُّدُ،
التَّذرُّى، ليس هو فقط، إنما مَنْ معه، صَحْبُهُ الذين أسَلَمُوهُ أمورهم،
تلكَ أصعبُ المراحلِ حتى الآن، بعدَ تمامها وقعتْ أولى المفاجآتِ المؤلمة،
المنهكة.

فى الغرفة الثالثة، الأضيْقِ عَرْضًا، الأكثر ارتفاعًا، ضيقة السقف،
هرمية الشكل، عندما تواجهوا مُنهكين، مُتَعَبِينَ، مترقِّبين، أدركوا أنَّ
التمامَ ولى، وأنَّ النُقْصانَ بدأ.

الآن.. هم ستة!

كيف تمكَّنَ صاحبهم من فَكِّ الحَبْلِ الذى يشُدُّه إليهم، أم أنه فارقَهُ
مُرْغَمًا؟ رُبما يَسْهُلُ تَصَوُّرُ الأمرِ، خاصَّةً أنه آخرهم، السابعُ، أشدُّهم
حيويةً، وأكثرهم حماسًا قبلَ الشروع.

أَيْنَ مَضَى؟

تَعَسَّرُ الإِجَابَةُ. لَا يَبْقَى إِلَّا التَّخْمِينُ، رُبَّمَا اسْتَسْلَمَ لِلْوَسْنِ، أَوْ تَبَعَ الصَّوْتَ فَهَوَى، أَوْ أَدْرَكَهُ نَصَبٌ فَجَثَا، أَوْ آثَرَ الْكَفَّ فَانْتَنَى.

تَطَلَّعُوا إِلَى الْفَتْحَةِ الَّتِي أَدَّتْ بِهِمْ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ فَلَمْ يَرَوْهَا، لَمْ يُسَاعِدْهُمْ الضَّوُّ الْغَامِقُ، رُبَّمَا لَمْ يَشَاءُوا التَّوَقُّفَ تَحَاشِيًا لِإِدْرَاكِ حَقِيقَةِ مَوَلَةٍ، هَكَذَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ أَحْيَانًا، وَلَكِنْ لِفَتْرَاتٍ قَصِيرَةٍ، سُرْعَانِ مَا يَسْتَجْمَعُ بَعْدَهَا نَفْسَهُ فَيَتَّبِعُهُ وَيَدْرِكُهُ وَيَحَاوِلُ.

يَعْنِي مُقَدِّمُهُمُ الْآنَ بَلَوْغَهُمْ نَقْطَةً لَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا أَحَدٌ، كُلُّ مَا يَلِي ذَلِكَ غَيْرُ مَطْرُوقٍ، غَابَتْ أَخْبَارُهُ مَعَ الْمُنْدَثَرِينَ، مَجْهُولٌ الْآنَ بِالْمَرَّةِ. كُلُّ مِنْهُمْ اسْتَرْجَعَ مَلَامِحَ الصَّاحِبِ الْمُخْتَفِي بِقَدْرِ، هَكَذَا... بَعْدَ رِفْقَةٍ، وَمُشَارَكَةٍ، صَارَ اسْتِدْعَاؤُهُ بِالْمُخَيَّلَةِ، وَلِلْمَحَاتِ وَجِيزَةٍ، يَغِيبُ هُنَا لِيُظْهَرَ هُنَاكَ، وَعِنْدَ لَحْظَةٍ مَعِينَةٍ يَنْطَوِي فَلَا يُخَلِّفُ لَحْظَةً أَوْ أَثَرًا. تَقَدِّمُهُمْ وَخَطْوُهُمْ هُنَا لَا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ، بِقَرَارِهِمْ شَأْنَ الْمَرَاكِلِ السَّابِقَةِ، الْمُنْقَضِيَةِ، إِنَّمَا لَا بَدَّ مِنْ انْتِظَارِهِمْ، حَتَّى ظُهُورِ الْفَتْحَةِ الَّتِي تَبْدُو لِكُلِّ مِنْهُمْ بِصُورَةٍ مُغَايِرَةٍ، رُبَّمَا مُسْتَدِيرَةٍ، أَوْ مُسْتَطِيلَةٍ، أَوْ مَثَلَّةٍ. أَمَّا تَوَقُّيتُ الْفَتْحِ فَلَا يَدُّ لَهُمْ فِيهِ، إِنَّمَا يَرْتَبِطُ بِعَوَامِلَ يَصْعَبُ تَفْسِيرُهَا، كَثِيرُونَ طَوَاهِمُ الْإِنْتِظَارِ هُنَا، وَكَثِيرُونَ مَلُّوا فَانْتَنَوْا عَائِدِينَ، وَرُبَّمَا مَضَى الْبَعْضُ وَلَمْ يَرْجِعْ.

اسْتَرْجَعَ بَعْضُهُمْ مَا يُرَوَّى عَنِ الْمَفَاجِآتِ الَّتِي يَتَعَرَّضُ لَهَا الطُّرَاقُ، انْخِسَافُ الْأَرْضِ فَجَاءَةً، خُرُوجُ مَارِدٍ يَحْمِلُ سَيْفًا، يَقْطَعُ رَقَبَةً كُلِّ مَنْ يَتَجَاوَزُ حَدًّا مَعِينًا دَاخِلَ الْأَهْرَامِ، هَذَا الْحَدُّ غَيْرُ وَاضِحٍ، بَلْ يَقَالُ إِنَّهُ

يختلفُ من شخصٍ إلى آخرٍ، أو هبوبُ رياحٍ كاسحةٍ، عاصفةٍ من مركزِ الأهرام، تنفذُ إلى أدقِّ أقسامه لتبيدَ كُلَّ من جرؤَ وأوغلَ، يُحيرُهُم هذا الهواءُ اللطيفُ، الناعمُ، المنعشُ، لا يتوقَّفُ عن الهبوبِ المنتظمِ والسريَّانِ عبرَ وتيرةٍ لا تعلو ولا تهن، لكنَّهُ من حينٍ إلى حينٍ يشتدُّ ولكن في كلِّ الأحوالِ لا يُسمعُ له صَوْتٌ. يخشونَ تحوُّله إلى درجةٍ تعصفُ بهم كُلُّهم. مُقدمُهُم أخفى عنهم توجُّسه وخشيته من هذا الهواءِ الطيبِ، بقدرِ هفوفِهِ ورقَّتِهِ أثارَ عنده رعدةً خفيةً لم يُفصحَ عن مداها، لم يطلع على أىِّ ذِكْرِ له في سائرِ المراجعِ التى ألَمَّ بها، ولم يُخبره أحدٌ شفاهةً ممَّن ادَّعوا العلمَ بالخبايا والأسرار، لكن. ليسَ هذا إلا تفصيلٌ ضئيلٌ. إنهم عندَ مُفترقِ حَاسِمِ الآن. ولُوجٌ مختلفٌ، خطا مغايرةً، أما ضيقُ المرتقى فباعثٌ آخر على الحَصْرِ والشعورِ بالنكس. كانَ الانحناءُ مؤلماً فى البداية إلا أنهم اعتادوا عليه، خاصَّةً مع تحريكِ أعضائِهِم بشكلٍ مُعَيَّن، عندَ نقطةٍ معينةٍ اردادت سرعَتُهُم كأنَّ قوَّةً ما تدفعُهُم. أو الأرضُ تُطوى تحتَ أقدامِهِم.

فى لحظةٍ معينةٍ بدأ تقلُّصُ إحساسِهِم بالارتفاعِ، كلُّ منهم على يقينٍ أن انحداراً بدرجةٍ ما بدأ، لم يكنِ الميلُ مُدركاً فى البداية لكن مع تزايدِهِ أبدى مقدمُهُم حَذَرًا، اضطُّروا مثله إلى محاولةِ التَّمَهُّلِ والتَّشبُّثِ مع التمسكِ بالجوانبِ المُصمَّمةِ.

كانَ الأمرُ لم يستغرقِ إلا دقائقَ، رغمَ وطأةِ الوقتِ، وتثاقُلِهِ، والإجهادِ، بسرعة.. انتهوا إلى بَسْطَةِ من الحجرِ المستوى، جدرانٌ مرتفعةٌ تُمكنُهُم من فردِ قاماتهم إذا استطاعوا، ذلك أن أجسادَهُم تكيفتْ بدرجةٍ

ما مع ضيق المرتقيات، والوضع شبه المنحني الذي اضطروا إلى اتخاذه، ما من مصدرٍ بادٍ للضوء الذي ازداد كثافة.

إلى اليمين بابٌ مُصمتٌ.

إلى اليسار بابٌ مُقابل، كأنهما الظلُّ والأصلُ، متماثلان، متواجهان، كالصوت والصدى.. على الجدران طلاءٌ أحمرٌ لأشكالٍ يصعبُ تحديدها، توقّفَ كلٌّ منهم حولَ الفُوّهة الدائرية المؤدية مباشرةً إلى أسفل، هل كانت موجودةً في مُتّصف البَسطة الحجرية أم ظهرت الآن؟

ما من تفسير، ثم .. ما أهمية التحديد إذا انتفى الخيارُ؟

التفتَ المقدّم إلى الآخرين، الكلُّ مُعتصمٌ بالصمت، ما كان يحدوه وقعُ بعضه، طولُ الصمت وفُقدانُ الرغبة في الكلام، يوماً.. أخبره شيخٌ مغربيّ جاء من أقصى بلاد الغرب بقصد الفُرجة على الأهرام بخطورة الصمت، إذا وقع خاصةً عندَ الرّحيل أو الخروج إلى الجهاد فتلك علامةُ شؤم، قال المغربيّ الأسمر، مثلثُ اللحية، ناصع الابتسامة، كأنه يراه أمامه الآن، إنه خرج يوماً مع نفر من صحبه فأوغلوا في الصحراء الجنوبية لغرضٍ يعنى القوم، كان مقدّماً عليهم، عيّنه الشيخُ. اضطرتهم الأحوال إلى الإقامة في مكانٍ مُنقطعٍ قُربَ عين ماء صغيرة. كانوا في انتظارٍ مددٍ لم يأت، خَشِيَ عليهم من الانتظار، أمرهم بتنظيفِ الرّمال، أبدوا دهشةً، لكنه أصرّ، أكّد أنها تعليمات الشيخ التي لا يمكن ردّها، بعد فوات المدة أخبرهم بالسبب الذي دَعاهُ إلى هذا الأمرِ الغريب، فلو تركهم سينفرد كلٌّ منهم بذاته

فيمعن ويرحل ويحن فيضعف عن المواصله، هزوا رءوسهم ولم يتندّر أحد.

لكن الفرق بين. كان المغربى فى الصحراء ومكثوا، لكن داخل الأهرام ليس بوسع المرء إلا السعى، إلا الحركة، إلا الخطو، إلا التقدم على أمل بلوغ الغاية، وتلك تختلف من شخص إلى آخر، فالبعض يوغل طلباً للكنوز الدفينة. والبعض يقدم بحثاً عن العلوم القديمة، وآخرون ييغون الوقوف على المجهول، فى كافة الأحوال لا يمكن لمن وكج الأهرام أن يكف، أن يتوقف، عليه أن يستمر أو ينكص، الأهرام كالجسر، والجسور للعبور، ليست للإقامة، وكل عابر يسعى مقلقاً، غير آمن بدرجة ما، فالأمان دائماً للوصول، لا يكون أثناء الانتقال.

ليس بوسعهم إلا النزول، طالما أنه ليس بمكثهم اختراق هذا الجدار الصلد أو فتح ذلك الباب الوهمى الذى لا يؤدى إلى شىء، ليس أمامهم إلا أن يتقدموا من خلال تلك المسارب والمرتقيات والمهاوى التى صيغت خبطها فى أرمنة لم يعرفوها، ومن آخرين لم يلتقوا بهم قط! عند كل حاقه، عند كل مدخل، يستعيدون ما كان منهم، خاصة صاحبهم، ترى. أين هو الآن؟

لا يعرفون ما جرى له، لا يلمون بمصيره، ومن أين لهم ذلك؟ لو قرّر بعضهم العودة فأى يقين يؤكد لهم أن الطريق الذى سلكوه فى المجيء هو عينه الذى يرجعون منه، هل سيؤدى بهم إلى عين نقطة البداية؟

كما عاينوا وشاهدوا ثمة فتحات تبدو فجأة، ودهاليز تطولُ بأكثر مما
قدّروا لها، فماذا يضمنُ لكلٍ منهم صحةَ طريقِ العودة.

فى العُرْفَة الأولى قال أحدهم ضاحكًا:

وهلّ الخروجُ من الأهرامِ مثلَ الدخولِ إليه؟

يبدو الهزلُ جدًّا الآن، بتأثيرِ، الإجهاد والضوءِ الغامضِ والرَّهبةِ يتعرَّفُ
كلُّ منهم إلى صاحبه بصُعوبة، لكلٍ عند الآخرين صورتان، الأولى تَمُتُ
إلى ما قبل دخولهم ومَوَقَعُهَا المُخَيَّلَة، وثانيةٌ يَقَعُ البصرُ عليها الآن
مضاعفةً بشروط المكان والفراغ وسريان الهواء، وكل ما يأتى أو يذهبُ
عبرَ المساربِ الخفيةِ التى لم يُلَمَّ بها كائن.

ما مِن بَدِيلٍ للاستمرار.

فى زمنِ التحضير والتأهّب. قبلَ عبورهم النقبَ، أخبرَهُم مقدمُهُم عن
ثلاثة دخلوا فى زمنٍ قديمٍ ثم غابت أخبارُهُم تمامًا حتى ظنَّ قومُهُم أنهم
من الهالكين، بعد أربعين سنةً كاملة ظهرَ أحدهم قربَ صحراءِ أبى صير،
قِيلَ إنه خرجَ من نَقْبٍ مجهولٍ، مُغَطًى الآن بطُمى النيلِ المترسّب. لَزِمَ
الصمتَ ولم يُخبر بشيء!

مَن يدْرِ؟

ألْقَى بالحبلِ، نَزَلَ مُتَعَلِّقًا به، انتظرَ الخمسةَ ظهورَ الإشارة. لم يطلُ
وقوفُهُم، جذبَ مقدمُهُم جَسُورَ القلبِ الحبلَ مرتين، عندما استقروا إلى
جواره أدركوا أنهم يتقلّون من حيرةٍ إلى حيرة.

الحيزُ غريب.

لم يقفوا بمثله من قبل، لا يمكن القول إنه مستدير أو مربع، كان جامعاً لأشكال لم يعرفوها قط. ما بلبلَ خواطرهم رؤيتهم حيرةً مقدمهم لأول مرة، عهدوه ثابتاً، مكيناً، لا يمكن التنبؤ بما يجولُ عنده، حتى صعبَ عليهم استنتاجُ ما يُفكرُ فيه لم يكتفِ عنهم خواطره فقط، إنما أوجاعه أيضاً وما يضايقه، عندما تَبِعُوا بصره الحائرَ أدركوا ما يجعله ضاجاً، مُقلَقاً.

إلى أين... وكيف؟

لأول مرةٍ يواجهون فتحتين كأنهما انشقتا للتو، في آنية واحدة، متساويتين تماماً، الأولى إلى اليمين والأخرى إلى اليسار، هذا أمرٌ نسبي، بالقياس إلى أيديهم وعيونهم، فلا يمكنُ تحديدُ دقيقٍ للجهة داخل هذا العمق من الهرم، ما يُمكنُ اعتبارهُ يميناً عند هذا ربما يكونُ يساراً عند ذاك. للجهات داخل الأهرام مقاييسٌ مغايرة تماماً، إدراكها لم يتم بعد.

إنها المرة الأولى التي يجبُ أن يتبعوا طريقين. هذا ما استقر رأي مقدمهم جميعاً حتى الآن، قال بعد إشارته إلى الفتحتين إن هذه دعوة، وتلك دعوة، ولا بد من تلييتهما، لم يبذل جهداً ظاهراً في الاختيار، أو اتخاذ القرار. بدا متعجباً. ميلاً إلى الإسراع، غير ساعٍ إلى النقاش.

انقسما.. بعد إشارته إلى أقرب الواقفين وإلى مَنْ يليه، طلبَ من الثلاثة الآخرين أن يُعينوا مقدماً لهم، قبل أن يتناقشوا أو يشرعوا في اتخاذ قرارٍ تقدّم. تصرفٌ حاسم كأنه رتبَ له من قبل. كأنه أعدَّ لمثل هذه

اللحظة، لم يَجِرْ عِناقٌ، لم تُلفَظْ كلماتٌ، فقط . مُجَرَّدَ تلوِيحٍ خافتٍ بالأيدى .

ممرٌ أسطوانيٌّ مَكْسُوٌّ بحجرٍ أبيضٍ مَشُوبٌ بصفرةٍ، رَغَمَ التعبِ، وارتجاف العضلاتِ نتيجةَ الانحناءِ القَسْرِيِّ، إلا أن السَّعْيَ كان أسرعَ بالنسبة إلى المراحلِ السابقة، بدا المَقدَمُ واثقًا رَغَمَ أن كلَّ ما ينتظرُهُم مجهولٌ.

كلٌّ من الثلاثةِ كانَ يفكرُ في صَحْبِهِ الآخرين . إلى أينَ وصلوا؟ ماذا لقوا؟ نقطةُ الفراقِ باعثةٌ على أَسَىٍّ ممدود . ومحاولةُ استعادةِ بعضٍ مما كانَ، خاصَّةً أن هاجسًا يَقِينًا يتجولُ لدى كُلِّ منهم الآنَ باستحالةِ اللقاءِ مرةً أُخرى، وأنَّ ما كانَ صارَ مُستحيلًا . وهل افترقَ قومٌ داخلَ الأهرامِ والتقوا من قبلُ؟ هل سمعوا بمثلِ ذلك؟

مع استمرارِ المُضَى عَبرَ دهاليزِ أسطوانيةٍ أو مهاو عميقةٍ أو فتحاتٍ تبدو فجأةً، يَغيبُ كلٌّ من ذَهَبٍ عن الأدهانِ . يَعمُقُ الاستغراقُ . يُوَكِّدُ مُقدِّمُهُم أن هذه الممراتِ والمنافذِ ستُؤدِّي بهم إلى غايةٍ . كفاةٍ ما اطلَّعَ عليه في كُتُبِ المطالبِ والطلاسمِ يُوَكِّدُ ذلك .

إنهم الآنَ أَقلُّ قُدرةً على تبادُلِ الحوارِ . تواریى أىَّ تفكيرٍ يخصُّ زملاءَهُم الآخرين . أو المراحلِ المنقضيةِ والتي اختلفَ إحساسُ كُلِّ منهم بها، غيرَ أن يقينًا شملَهُم يخصُّ الزمانَ يُوَكِّدُ أن إيقاعَهُ يزدادُ سُرعةً كُلَّما أوغَلُوا، وأنَّ التمييزَ بينَ الليلِ والنهارِ صارَ صَعْبًا، وأنَّ الشروقَ والغروبَ لا يَتَمَّانَ خارِجَهُم إنما داخلَهُم، فلم يَعدُ للاستفسارِ القديمِ: ليلٌ الآنَ أم

نهار؟ أى معنى، يُمكنُ لكلٍ منهمُ تحديدُ ما يَمُرُّ به، فيمثلون فى اللحظة نفسها لكن يكون عندَ هذا ليلٌ، ويَصيرُ نهارٌ عندَ ذلك. يقينٌ آخرٌ يخصُّ المكانَ، يقينٌ ثبوتىٌ يُؤكِّدُ أنَّ مراحلَ الارتقاءِ وُلَّتْ، وأنهم يتحركون الآن فى عُمقٍ أهرامى مُتَّجِهٍ إلى أسفل، ربما تجاوزوا مستوى الياسة التى خَطَّوا فوقها طويلاً قبل إِيغالهم فى العُمقِ الأهرامى، ما حَيَّرَهم أحياناً مَصادرُ تلك الرياحِ الخفيةِ ومساراتها، كذلك درجَاتُ الضوءِ ومَنابِيعه، وذلك التَدَقُّقُ البادى من مقدمهم الذى لم يَعدُ يتطَلَّعُ إليهم.

من مهوىٍّ إلى آخر، من مَمَرٍ إلى مَمَرٍ، من مُثَلَّثٍ إلى مُسْتطِيلٍ إلى دائرة، من قُمعىٍّ إلى حَلَزُونىٍّ، من مِثْمَنٍ إلى مُسَدَّسٍ إلى مُرَبَّعٍ، إلى ما يَصْعَبُ تَوْصِيفُه.

لم يَعدُ المرورُ بالغُرُفِ مُثِيرًا، ما أَكثَرُها، مع كلِّ خطوةٍ تُوكَلَى خطواتُ أَقْدَمٍ، تَنَدَثَّرُ تَمَامًا من الذاكرة، تُمَحَى من المُخَيَّلَةِ، حتى اختلَطَ عليهما الأمر، شَكَّ أحدهما فى وجودِ رَفَقَةٍ سابقة، وظنَّ الثانى أن عهده بالأهرامِ قديمٌ، وأنه بذلَ الجهدَ فى إدراكِ ما أَلَمَّ به من قبل.

عندَ حلولِ لحظةٍ وموضعٍ توقَّفَ المُقَدِّمُ، يرفعُ يَدَيْهِ أمامَ وجهه إنه مفاجأٌ بِكُلِّ هذا السُّطوعِ المِباغِتِ حتى ليكَادُ يَعْشَى.

هذا ما وَرَدَ التنبؤُ به فى بعض المخطوطات العتيقة، فقط تلميحٌ من بعيد، لم يَصِفْها أحدٌ لأن بلوغَهَا ظَلَّ فى دائرة اللاممكّنات، لم يَذكرُ مخلوقٌ بدقة هذا الامتزاجِ، وذلك التداخلِ، ما هذا كله إلا ثَمَرَةٌ لِلسَّعَى، للصبرِ، للمجاهدة، يَكُنْهُ مِصَارِحَةٌ صَحْبُهُ الآن، القولُ إن

جهادهم وإقدامهم وبذلهم لم يَمُضِ هَبَاءٌ، كان داخله فَيَضُّ يَصْعَبُ
استيعابه.

لا يعنيه الآن علوية الحركة أو سُفْلِيَّتُهَا، تتشابهُ عنده الجهاتُ، كافةُ
الممرات تُؤدِّي إليه، ويدلُّ هو عليها، تبدأ منه وعنده تنتهى، تتراصُّ
الأحجارُ داخله ويصل بينها يتوزَّع خلالها، عبرها. ينتهى الآن إلى صميم
الأهرام السيَّال، المنصهر، الدائم، الذى لم يُعَرِّ عنه بشرٌ من قبل، فلا
اللقْظ ولا الرُّسم ولا الإيماء ولا التصريح ولا القيام ولا القعود.

أوغَلَ فى الأهرام، وعَيْنُ الولوج تُدرِّكه، ما هو إلا ذرات مكونة. هو
هو. وهنا هناك. وهناك هو. تكتمل استدارته، فتلتقى النقطةُ بالنقطة.
وتكون الالتفاتة إلى الالتفاتة.

لِيُخْبِرَ زميليه.. لِيُطْلِعَهُمَا، ليرى ما عندهما.

لكن.. عبثاً رؤيتهما، لا يُواجهُ إلا نفسه، إنه بمفرده تماماً، مُنْبَتٌ،
صَاغِرٌ.

مَنْ يَصِلُ إلى هنا لابد أن يكونَ وحيداً، مُنْقَطِعاً، تلك اللحظة، هذه
المسافة من غورِ الأهرام.. لا تَحْتَمِلُ الرفقة.

مَتْنُ ثَالِثٍ

تَالِثٍ

.. عائلة أمرها قديم، ذائع، مذكور في كُتبٍ ماتزال مخطوطة لم تُطبع بعد، أما شأنه فمعلوم، رائجٌ داخل البلاد وخارجها.

يؤكدُ مَنْ لَهُم خبرةٌ بتسَلُّق الجهات الأربع أن نبوغه ظاهرٌ، ولخطوه فوق الأحجار إيقاعٌ مُغاير، ورغم التاريخ الطويل لأجداده إلا أنه جاء بمآلٍ يُقدِّم عليه أحد، فلم يحدث قط أن تم الوصول إلى القمة ليلاً.. ومتى؟

في الليالي المعتمة، الخالية تماماً من القمر، وأضواء النجوم القصية. يعرفه كلُّ مَنْ لَهُ صِلَة، علماء الآثار المتخصصون، ضباطُ وجنود الشرطة المكلفون، أو القادمون لمهمات عابرة، معظمها لحماية الشخصيات الكبيرة التي تجيء عادةً للفرجة، وأصحاب شركات السياحة، وقُدّامى المرشدين والأدلاء والمترجمين، وأجانبٌ من بقاع شتى تردّدوا على الأهرام مرات، وصاروا مشدودين إليه.

حَرِصَ على رؤيته رؤساء وملوك وأمراء، ونجوم سينما عالميون ومحليون، ومصمموا أزياء، وخبراء عطور، وأثرياء يمتلكون مراكباً عابرة، وأخرى راسية. يُعلّق في صالة بيته خطاب شكرٍ مُوجّه إليه من الديوان الرئاسي، يشكره على المجهود المضني الذي أبداه في تسَلُّق الهرم الأكبر سبع مرات متعاقبة لا يفصل بين كلٍ منها أى استراحة. أمام ضيف البلاد الرئيس الأندونيسي أحمد سوكارنو.

الثناء قديمٌ عند أجداده، ذَكَرَ البلوى في تاريخه أن ابن طولون أثنى على أحدهم وأعجب به، وترجم المقرئى لواحدٍ منهم في «المُقَفَّى» الذى

ما زال قسمٌ غيرُ هينٍ منه مفقوداً. قال المقرئى إن الناصرَ محمدَ كان يخرجُ إلى الجيزةِ خَصِيصاً ليراه ويتابعه. أما نابليون بونابرت فنصحَ علماءَ حَمَلَتِهِ برَسمِ جدِّه الرابع، لكنهم لم يتمكنوا لسُرْعَتِهِ، وخَفَّتِهِ وقُدْرَتِهِ على الإِبهارِ.

أُسْرَةٌ مُوْغَلَةٌ فى المهارة. وتوارث المسارب المؤدية إلى القمة. عندَ سَنٍ معينة - ربما السابعة - يُلْقَن الأبُ وكَدَه الخُطى الأولى ثم يُوْغَلُ شيئاً فشيئاً حتى يُصْبِحَ الطموحُ المستمرُ تقصيراً المدة.

يقول بعض من لهم دراية بالعلامات الخفية والطلاسم، أنها تنقص كل مائة سنة مقدار دقيقة، لم يكن الأمر سهلاً، مجرد تَخَلُّلِ حجرٍ من مكانه، أو تَأْكُلُ حوافٍ آخر يُطِيلُ المسافة أو يختصرها، بالإجمال... يحيدُ بِالخِطَّةِ.

ما أقْدَمَ عليه هو، ما انتهى إليه جعلُهُ مثلاً يُضْرَبُ، وقُدُوَّةٌ لمن سيأتى بعده، إذ أمكنهُ اختصارُ المدة مرتين خلالَ عَشْرِ سنوات، من ثمانية دقائق إلى سبعة ونصف، إلى سبعة... هذا توقيت غيرُ مَسْبُوقٍ بالمرّة، لم يُدَوِّنْهُ مَرَجِعٌ قَدِيمٌ أو حديث، صارت قدرته علامةً على بلوغِ المُرامِ الوعرِ فى الزمنِ القليل.

مَشَتْ سيرته بين الناس، فأعجبوا به، ومالوا إليه، وكَثُرَ الثناءُ عليه.

كانَ وحيداً، لا أشقاءَ له، جاءَ بعدَ انتظارِ سنواتٍ سَلَمَ خلالها والداه بقضاء الله وقدره، عندما وصلَ خافاً عليه العينَ والحَسَدَ، أحاطاه برعايةٍ وحَذَرٍ، لم يرتد قط الثيابَ الزاهية، إنما كان ملفوفاً فى الملابس السوداء.

وسُمتَ جَبْهَتُهُ بدوائر البُن الغامق، كذا وجتاه، ومقدمة ذقنه. رغمَ حرصِ أمه عليه من رَقَّة الهواء، من النسمة السارية إلا أنها رفضت إطلاقَ اسم أنثى عليه، وأن تُخفى ذكورته بملابس البنات كما اعتادت قلياتُ الخلفة، مع أنها لو أقدمت لما شكَّ الأقربون. فالوكد كان مُستديرَ الوجه، واسعَ وعميقَ العينين، مليحَ التقاطيع، يؤكدُ كلُّ مَنْ رآه أنه كان دائمَ التطلع إلى جهة الأهرام، إلى الغرب، لو حملته أمه يُستدير، إذا حَدَّتْ به يرتفعُ صُراخه. مع الوقت أدركت فلم تُرضعه إلا إذا جَلَسَتْ وظهرها إلى الأهرام. عندئذ تعلقُ شفتاه بثديها، وإذا يكتفى يُدركهُ النومُ العميق.

هل كان مشدوداً لأمرٍ خفى لا يعلمه؟

هل كان يُلبى نداءً لا يمكن لآخر سَماعه؟

أم هو تراث أجداده الأقدمين الذين وزَّعوا أيامهم وأفنوا أعمارهم فوق تلك الأحجار؟

لا يمكن لأحد القطع، وإذا يُصغى إلى ذكريات أمه عنه، تُحاولُ استفزازه. دفعه إلى النطق، إلى التفسير، لم يُقابلها إلا بابتسامة قانعة، راضية.

لم تدر أمه إذا كان يذكرُ لحظةَ فطامه، عندما تَبَعَتْ والدَه قبلَ الغروب وأوغلاً سبعَ خطواتٍ داخلَ المُرْتقى. كَشَفَتْ ثديها الذي دَهَنَتْ حُلْمَتَه بالصَّبَّار المُرَّ، تَرَدَّدَتْ صَرَخَاتُه - ياعينَ أمه - لكنه خطأ خطوةً باتجاه كينونته الغضبة الخاصة.

لم يُخفِ والده سروره المبكرَ بارتباطٍ وحيده، اتجاهاً الدائم إلى

الأهرام. لذلك لم يثن، أقدم على تلقيه أسرار المسالك المؤدية، قيل إنها أربعة. ويؤكد آخرون أنها ثمانية، لمن أتقن. فى الثامنة صحبه حتى المنتصف، فى العاشرة وقف إلى جواره فوق الذروة، حيث تنتهى المادة وبدأ الفراغ. أشار إلى المعالم الدانية والقصية، عندما بلغ الثانية عشر أصبح باستطاعة الأب أن يقعد بين الزوار المتفرجين، أن يتابع خطى ولده، قفزه الرشيق من حجر إلى آخر. فى الطلوع أو النزول.

بدا وكأن المهارات المندثرة والمتوارثة انتقلت إليه واستقرت عنده، تعلم القراءة والكتابة، وأعجب به أساتذته، قالوا إنه عاقل. رزين، يسبق عمره، كثير الصمت والاقتصاد فى الكلام والصيانة.

مرة واحدة انزعج والده لسؤال مفاجئ لم يتوقعه:

هل تسلق أحد أجدادى الهرم الأوسط؟

لم يشأ والده أن يظهر انزعاجه، أن يفضى إليه بالمحاذير الكامنة وراء صعود هذا الهرم بالذات. مازال جزء من الكساء وردى اللون، الجرانيتى، المغمر بالأشكال والحروف يغطى قمته، لم يرغب فى التهويل ولا التخفيف، إنما قصد أن يتبع الصدق، ألا يخفى عنه أمراً، لكن يحذر.

فى الولد شىء غامض، يجعل المسنين، المهابين يلزمون الصمت عند ظهوره، يبدو الود ناحيته. يعاملونه باحترام، أطلعته والده على الواقعة الوحيدة التى جرت منذ ثلاثة أجيال، عندما أقدم أحد الأبناء على الصعود.

لم يبد تحذيراً صريحاً، لكنه خشى أن يقدم على المحاولة، لكن رغم

عودة الابن الغالى للاستفسار والتقصي إلا أنه لم يشرع، كان اهتمامه الدائم بالهرم الأكبر، خاصة الذروة، المنتهى. كثيراً ما صعد إليها بدافع من عنده وأمضى الساعات الطوال مفرداً، وهذا ما حير أباه وأخاف أمه، خاصة صمته المكين، وقلة بوجهه.. يثبتُ بصره تجاه الأهرام ولا يحيدُ عنه بالساعات، مما أقلقَ والديه حتى أن أمه سعت سرّاً إلى الشيخ المغربي لإعداد حجاب يقيه المهالك، ويغتنب الزمن، لكن المغربي، المرابط. المتوحد بالوقت، والصمت، قال لها إن ابنها ليس فى حاجة، لأنه موعود.

موعود بماذا؟

لم يُفسّر المغربي. لم يشرح، هكذا هم، يصعبُ استخلاصُ الحقيقة منهم. لم يَته ذلك قلقهما الدائم عليه. خاصة والده الذى لزم الدار مع وهنه، وتضعضع أحواله، لكم انتهت إليه أمورٌ غريبةٌ راجت وشاعت عن أجداده السابقين، لكن لم يسمع عمن يشبه ابنه. مازالوا يقصون عن جدّه الثانى ذى الساق الواحدة وقدرته على تسلق الأهرام، قفزاً وانحناءً مع استناده إلى الحجارة الضخمة المترابطة، وإقامة جدّه الثالث لمدة شهر كامل فوق الهرم الأكبر. لم يتزل مرة، ولم يزوده أحدٌ بكسرة خبز أو شربة ماء. لم يبيح لمخلوق بمصدر راده، وقال البعض وأكثدوا أن طيوراً خضراً كانت تُزقّقه بالثمر والقطر. يؤكّد الرواة أن الذروة لم تكن تتسع وقتل إلا لشخص واحد، كانت نظيفة مجلوة كأنها لم تنقص شبراً. سمع عن أحد الأقارب الذين سَعوا فى زمن بعيد، دخلَ وغاب، حتى انقطع كل رجاء فى عودته، لكنه ظهر بعد أربعة وعشرين سنة أمضاها كلها فى عمق الهرم.

أين؟

لم يجب .

كيف؟

لم يفسر .

أبدى الولدُ اهتمامًا بجَدِّه الذى انقطعَ فوقَ، عندَ المُتَّهَى شهرًا بأكمله، صحيحٌ أنه لم يُلحَ فى الأسئلة، لم يستفسر كثيرًا، لكن اللفظَ المنطوقَ عنده يعنى الكثيرَ من شخصٍ طويلِ الصمتِ . عندَ إفضائه بمثلِ تلك الاستفساراتِ تشخصُ أمه مُتطلعةً، واجفةً، حتى لتحبسَ أنفاسها .

قال أبوهُ إن إبداءَ مثلِ تلك الخشية لا محلَّ لها الآنَ، الولدُ عاقلٌ وإذا كانَ يتسلى بمفرده، ويجتاز هذا الارتفاعَ الوعرَ، ويبدى من الهمة ما جعله موضعَ إعجابٍ وطلبٍ . فلا داعى لإظهارِ خوفٍ لا يليقُ إلا بالصبيَّة .

تقولُ أمه إنه سيظلُّ صغيرًا بالنسبة إليها، حتى بعدَ زواجه وإحجابه البنينَ والبناتِ، عَجَلَ اللهُ بيومِ فرحه بعد أن يرزقه اللهُ بابنةٍ الحلالِ التى تصونه وتُريحُ باله .

مرةً واحدةً قالت إن طولَ صمته يُقلقُها .

من يرهُ أثناءَ تسلُّقه لا يخطرُ بباله قُدرتهُ على السكوتِ، صعودهُ مختلفٍ، يستمتعُ والدهُ بمتابعته . بمجردَ ملامسته أحجارَ الهرمِ . تسرى عنده حيوية وتُهدرُ طاقةٌ، يخفُّ، يشبُّ، لا يتطلعُ إلى أعلى . لكنه ينتقلُ برشاقةٍ مُحيرة . كأنه يتبعُ صوتًا خفيًا يدُّه . أو يمدُّ يدهُ إلى أكفٍ لا يراها

إلا هو، ترفعه عند مواجهة حجرين متلاصقين، مرتفعين، يجب القفز فوقهما لاختصار جزء من ثانية. بل إن لون بشرته ليتغير، قرب الذروة يصبح شبيهاً بلون الأحجار التي فقدت غطاءها منذ زمن، لون وسط بين الأصفر والأبيض والبنى، أحياناً لا يمكن توصيفه بدقة. كأنه قد منها، متصل بها عبر خيوط غير مرئية، ياسلام.. لولا سرحته الدائمة تلك، وذهاب عينيه إلى بعيد، لفارق الدنيا مطمئناً عليه.

الحق.. لم يُبالغ والداه في خشيتهما. كانا يرقبانه بدهشة، بحذر. بخوف من وقوعه في الجذبة. أو استسلامه لسيطرة قوة غامضة لا يعرف مخلوق طبيعتها. ولا تنفع الأحجة والأوراد في دفع أذاها. ليس كل ما تضمه الأهرام وتلك الجبانات مكشوقاً، مباحاً.

كان متعلقاً بالأهرام، دائم النظر إليها حتى وهو فوقها، لا يكف عن الطواف بكبيرها وأوسطها وصغيرها. المكتمل منها والناقص، الخفى والظاهر، مثل هذا الشغل غير جديد، لا يُشير، فهو ابن عائلة قديمة الصلة. كان محور تفكيره من نوع آخر، بما وراء هذه الأهرام، لم تستغرقه الأمور التي تشد انتباه من يُماثله عمراً، حتى مراهقته لم تحدث تلك المطبات التي يقع فيها عادة من ينتقل عبر أطوار العمر المختلفة، خاصة من الصبا إلى الرجولة.

فتيات ونساء من أجناس شتى تعرضن له صراحة، وتعلقن به، إحداهن عرضت عليه مصاحبتها إلى ألمانيا، وله ما يشاء، ما يطلب، أحوالها ميسورة، ولا تكف عن الرحيل وزيارة البلدان بهدف الفرجة،

والمشاهدة. أخرى من اليابان ماتزالُ تبثُ هُيامَها عبرَ خطاباتٍ تصلُ إليه بانتظام، تحتلُّ مركزاً سياسياً مرموقاً في الحزب الحاكم، بل إن رجالاً هاموا به، جاء بعضهم لرؤية الأهرام فلم يروا إلا قوامه، ورشاقته، وملامحه التي تبدو كأنها خرجت من جدران معبد فرعونى. . هكذا وصَّفه مسئولٌ كبيرٌ بحلفِ الأطلنطى، يسكنُ مدينةً لو كسمبورج.

كان يعرفُ جيداً كيف يكونُ الجوابُ، سواءً كانَ اعتذاراً رقيقاً، أو نهراً حارماً، قاطعاً، يعرف كيف يُعبرُ عن نفسه جيداً من خلال إتقانه أربعة عشر لغة، يُجيدُ الحديثَ بمعظمها ولا يكتبها شأنُ أبناء المنطقة المخالطين للأجانب القادمين من كل فجٍّ، إلا أنه تميَّزَ عن الآخرينَ بقدرته على قراءة النقوش. ونطق الهيروغليفية، تَعَلَّمها من مُفتشِ الآثار القدامى الذين قرَّبوه واستعانوا به فى مهام متعددة، هو مثلاً الذى حدّد موضعَ الحجرِ الساقطِ يومَ الزلزالِ الشهير، مسئولٌ كبيرٌ بالهيئة العامة للآثار - رحمه الله - صافحه بعدَ نزوله، تطلَّع إليه ثم خاطبَ المحيطين به قائلاً:

«إنه يعرفُ عن الأهرام أكثرَ مما نعرفُ كلُّنا»

هل كان الرجلُ مُلمّاً ببعضِ مكنونه؟

بالتأكيد لا، لأنه لم يجلس إليه، لم يسمعَ منه، لكنه تلقى عنه بعضَ الإشارات فأدرك واستوعبَ. من عباراتِ تفوّه بها، من دلائل أخرى لا يمكنُ الإحاطةُ بها جملةً.

عندما بدأ يُفضى لوالده أخفى الرجلُ جزَعَه. تقدّم فى العمر إلى

درجة لا يمكنه عندها إلا الإصغاء، ماسمعة آثار عنده أصداء لم يبح بها لمخلوق.

قال إن هذا البناء الهائل من الحجر سواء كان الأكبر أو الأوسط، إنما هو مجرد أمر ظاهرٍ لشيء آخر، لمعنى.. ربما، لتكوين، لحقيقة، لقوة ما.. يجوز هذا كله، لا يمكنه التحديد، لو علم وأحاط لاستقر وهذا.

لم يكن دافعه ومحركه لصعود الأهرام، وحفظ المسالك، تجاوز المدد المعروفة، المدونة من أجل مواصلة دور متوارث، اتقنه الأجداد كمصدر رزق، وانتزاع الإعجاب من غرباء عابرين، إنما كان وسيلة للوقوف على ما يبحث عنه، ما يقضه منذ أن وعى وأدرك الفرق بين الأصل والظلي، بين المتبوع والتابع.

ما وراء هذا التكوين؟

لماذا جاءوا بهذا الشكل؟

كيف تتصل المادة بالفراغ؟

تلك القاعدة الهائلة من الأحجار الضخمة التي تقل كلما اتجهنا إلى أعلى. حتى تنحسر الكتلة الهائلة، تتلاشى عند حد معين، بعده يبدأ الفراغ، ينفذ المحسوس القادم من أسفل، ويبدأ اللانهاية، ليست القاعدة إلا نبتة من العالم الأرضي، نبتة تمت إلى الكوكب كافة، متصلة بما هو أشمل، وعند الذروة تبدأ النقطة غير المدركة بالنظر، ماهي إلا البداية والنهاية معاً لما يُعسر على الأفهام إدراكه أو استيعابه.

تلك النقطة شاغله.

أرضية محسوسة، أو لا مرئية.

جذعها ثابت، أو غير محدودة، متصلة بحواف الكون.

المح ولم يُفسّر، ربما لأنه لم يشأ التصريح، وربما لأنه لم يدرك. لم يستوعب، لا بد أن أموراً أخرى جالت عنده ولم يلمح إليها، لم يكن باستطاعة والده أن يجادله. خاصة بعد رحيل أمه الأبدى. وتضعض بُنيان الرجل. عندما رأى ابنه يقف في الفناء لحظة انبلاج الخيط الأبيض من الأسود. لم ينطق، لم يسأله عن الجهة التي يقصدها في هذا الوقت، ربما أدرك اللافائدة، اكتفى بالتطلع، بالتزود من فراهة حضوره، وسُموق عزمته، بخبرة الأيام الطوال التي قطعها وعبرته أيقن أنها اللحظة التي أمضى أزمته يعد لها ويتحسب.

عبر الباب، خرج إلى الطريق الصاعد، لم يتوقف لحظة، لم يلتفت إلى الوراء.

بدأ تسلقه بسهولة، يُسر، لا يصعد الآن ليستعرض مهارة. أو ليهر ضيقاً. أو ليتقن طريقاً جديداً يختصر به المدة.

إنها تلبية، وإبداء جواب، ثمة دافع غامض الكنه. لم يطلع عليه شاهد، ولم يلمحه راصد، يؤدي به إلى أعلى، إلى الذروة، يتقن الوصول إليها عبر عدة مسالك تتخلل تلك الأحجار التي تبدو للمتطلع الغريب متباعدة رغم تلاصقها، لكنها النظام عينه.

فى طلوعه هذا لم يتبع طريقاً أدى به يوماً، إنما كان يتقدم مُتخطياً كل النقاط التى بدأ مستحيلاً الاقتراب منها يوماً، ويؤكد أبوه الذى زحف حتى بداية الطريق، أنه كان باستطاعته أن يراه رغم إعياء النظر، وغبشة الفجر، وانقطاع الأسباب!

يُردّد العارفون، المدركون لبعض مما وراء الحُجب، المتلمسون اتجاهات المصائر، أنه بمجرد وصوله إلى الذروة، أقصى المسافة المتاحة. تألق عاكساً ضوء الشرق الوليد كافة حتى ليُمكن رؤيته من بعيد، من سائر الأنحاء، ربما ارتدى قميصاً يمتُّ إلى الأجداد. بدأ منه ما يُشبه الرقص فرحاً، كأنه يُدرك القمة أول مرة، هذه المساحة الضئيلة التى أمضى أحد أجداده فوقها شهراً بغير زاد معروف، التى تلخص كافة ما يقع تحته، ما هو مُوغل فى باطن الأرض. وذلك الفراغ المهيب، الذى لا يمكن حده، ويطمس كل الفواصل، ويسوى بين الموجودات.

لم تكن حركته الدائرية، المتوَّبة تلك، إلا تمهيداً لتلقى تلك البغثات من الإشراقات المفاجئة، المتوالية، والتى أخذته من كل جانب، تخللته، اجتاحتته، دفعت به وإليه مُستقرّ النغم. ومصدر كل حلم، جذر كل توق، سرّ اندلاع الرغبة وانطفائها، والدافع لميل الغصن وفراقه عن الجذع.



مَتَقَّ رَابِع

إِدْرَاك

حدّثنا الناصريّ محمد أحمد بن إياس الحنفىّ المصرىّ فقال:

بعدَ مجىء الخليفة المأمون إلى مصرَ وإخماده الفتنة، انشغلَ بأمر الأهرامِ جداً حتى أنه ضربَ خيامَه على مقربةٍ منها، وكانَ يُكثر من التطلّع إليها. والنظر إلى سُموقيها. وتأملُ الكتابةَ المنقوشة عليها بقلم الطير، وطافَ حولها مراراً، إما راكباً يُحيطُ به حرسُهُ أو راجلاً منفرداً، مُحذّقا في أحجارها، مُتفكّراً في أسرارها، مُتعبّجاً من هذا البنيان، وقبلَ أن يُقرّرَ رأيَه على فتحِ النقبِ الذى يدخلُ منه القومُ حتى أياมนา تلك، أمرَ بقياسِ أبعادها بدقة، وخصّصَ لذلك يوماً معلوماً.

فيه خرجَ بكاملِ الأبهة، يُحيطُ به أركانُ الدولة، وعليةُ القوم، وكبارُ الخدمِ ممّن جاءوا بصُحبته، كذلكَ أعيانُ أهلِ مصرَ، وحشدٌ من الخلقِ سَعَوْا للفرجة، خيّموا فى المسافة الواقعة بينِ الأهرامِ الكبرى وتمثالِ «أبو الهول»، ثم جاء المعلمون وبينهم قِيّاسون من بغداد، وسمرقند، ودمشق و.. القاهرة.

اختاروا كلُّهم المعلمَ ابنَ الشحنة، وكان حُجّةً فى هذا المجال، يمكنه تقديرُ المسافاتِ بالنظر، يؤكّدُ العارفونَ به أنه لم يُخطئْ فى ذلك قطّ تلقى أسرار القياسِ عن أجداده من قبَطِ الصعيدِ الأعلى.

أشارَ المأمونُ إلى الأهرام، قالَ بلسانِهِ تقعُ بين الأمر وطلب المعرفة بل.. والخيرة، مما جعلَ بعضَ شهودِ ذلك اليوم يؤكّدون فيما بعدُ أنه كان مُلماً بما لم يُفصح عنه من قبلُ، وأنه كان يعرفُ بشكلٍ ما.

نظرَ ابنُ الشُّحنةِ إلى الهرمِ الأكبرِ الذي حَيَّرَ الأقدمينَ والمُحدثينَ، بدا
معنيًا متمهلاً، وعندما التفتَ إلى مَنْ حوله لاحَ منه اضطرابٌ خفى لا
يستعصى رَصدهُ على الفَطنِ، اللبيبِ، طلبَ من المأمونِ الإذنَ له
باستخدامِ أدواتِ القياسِ، مُستحيلٌ إدراكُ المطلوبِ بالبصرِ، فأذنَ له.

قاسَ كُلَّ ضِلَعٍ من الأربعةِ، استغرقَ وقتًا ليسَ بالهينِ حتى تَمْلَمَلَ
بعضُ رجالِ الحاشيةِ، أولئك الحريصونَ دائماً على إظهارِ ما يظنونَ أنه
يجولُ بذهنِ سيِّدهم سعيًا وتقربًا، غيرَ أنه أشارَ بيده، طالبًا الصبرَ،
والانتظارَ فالمهمةُ عسيرةٌ، وليستَ كما تبدو.

أقبلَ ابنُ الشُّحنةِ فظنَ القومُ أنه سيُبلغُ أميرَ المؤمنينَ بالنتيجةِ، لكنه
وسَطَ دهشةِ الكافةِ طلبَ مُهلةً ثانيةً فاستجابَ الخليفةُ. غرَبَت شمسُ اليومِ
الأولِ، عادَ بعدَ خُلُوِّ السماءِ منها لِيَطْلُبَ فُرصةً ثالثةً صباحَ الغدِ، قالَ إنه
سيبدأُ لحظةَ الشروقِ.

بَشَّ المأمونُ وأظهرَ له المودةَ والصبرَ، بل وأثنى على هِمَّتِهِ تشجيعًا
وحصنًا له، فلم تَلَحْ أى نتيجةٌ بعدُ.

فى مطلعِ النهارِ التالى فرغَ ابنُ الشُّحنةِ من مُهمَّتِهِ كما بدا عندَ إقبالهِ
على المأمونِ، قالَ إنه لم يُعاينَ فى حياته، ولم يسمعَ من الذين سبقوه
عن أى بناءٍ فى المعمورة يحوى تلكَ النِسَبَ الدقيقةَ، التماثلَ مَذْهَلًا، مُثِيرًا
للإعجابِ بينَ الأضلاعِ الأربعةِ، لكنه فى شكٍ من شىءٍ لا يودُّ الإفصاحَ
عنه إلا بعدَ التأكدِ.

أوماً المأمونُ، بدا راسخاً، كأنه يعرفُ ما صرَّحَ به ابنُ الشُّحنة مُقدِّماً.
لم يدرِ الحاضرون إن كان مُحيطاً فعلاً بما أوقعَ الشكَّ في نفس ابنِ
الشُّحنة، أو أنهم بإزاء عادة الملوك الذين لا يُبدون الدهشة إزاء ما يسمعونَه
من غرائب، وكأنَّ إلامهم بكافة شيء أمرٌ مفروغ منه.

سأل بهدوء:

وماذا تطلب؟

التفتَ ابنُ الشُّحنة إلى الهرم قبل أن ينطق:
أطلبُ قياسَ الأضلاع عند المتَّصف.

أشارَ المأمونُ بيده:

«لك ذلك... لكن اصحبْ معك مَنْ يُجيدُ التَّسلُّق»

جاءوا إليه بأحد العالمين، الملمين بالدروبِ الصاعدة، من عائلة تعيشُ
على مقربة تَخَصُّص أفرادها في طلوع الأهرام. منذُ زمنٍ قديم، إلى ما
قبلَ مجيء العربِ إلى مصر، أمرُ المأمونُ أن يترفق بابنِ الشُّحنة، وأن يدله
ولا يكتُم عنه ما يعرف.

كان ابنُ الشُّحنة في الخمسين من عُمره وقتئذٍ، قادراً على الطلوع وإن
على مهلٍ. كانَ فريداً في بابه، ذائع الصيت بين المعنيين بأمور القياس،
متمكناً من أمره.

بدأ عند الضُحى، وعندَ الظُّهر بانتِ الدهشة على وجوههم جميعاً

عندما لاحظوا أنه يُكرّر ما يقومُ به، يغيّبُ عن تلك الواجهة ليظهر بحذاء الأخرى، تملّل البعض، غير أن المأمون بقي راسخاً، لا يُظهر تملّلاً أو ضَجَرًا، بل التفت إليهم مُهدّئاً ومُطمئنًا.

اصبروا عليه.. الأمر وعَرٌّ.

قبل الغروب مثّل ابن الشُّحنة أمامه. بدا مُرهقًا تعبًا من بذل المجهود، قال حائرًا، مُترددًا:

«يا أمير المؤمنين.. أخشى ألا تُصدّقني..»

تطلّع إليه بوجه هادئ، يعجزُ الأقربون عن إدراك ما يجولُ عنده:

«قل ما عندك..»

قال ابن الشُّحنة القياسُ:

«العرضُ عند المتصف مُماثلٌ للقاعدة.. لا يزيدُ ولا ينقصُ.

طولُ كل ضلعٍ أربعمائة ذراع.. يا مولانا.. لا ميلَ هناك ولا نقصان..»

بعد لحظات سُكون، ردّد ابن الشُّحنة:

«الأمرُ حيرة.. الأمرُ حيرة..»

جهرَ بعضُ الواقفين بشكّهم، بدا قائدُ الجيش الذي بذلَ الهمةَ وقَمَعَ الفتنةَ أشدَّ جرأةً:

«إنه كاذبٌ يا مولانا أمير المؤمنين.. يُريدُ لعقولنا أن تُصدّقَ عكسَ ما نراهُ بأعيننا..»

تطلّع ابنُ الشحنةِ إلى المأمون:

«واللهِ هذا ما وَجَدْتُهُ يا أمير المؤمنين..»

بدا هادئًا، كأنه يُصغى إلى ما يتردّدُ داخله، وليسَ ما يقولهُ الغَيْرُ،
نطقَ متسائلًا:

«هل يُمكنك قياسُ طولِ الأضلاعِ عندَ القمة؟»

تطلّع ابنُ الشحنةِ إلى الذروة البادية، فى الليلِ خلا إلى المأمونَ مقدارَ ساعةٍ، ثم مضى إلى مَوْضِعِ رُقَادِهِ، غيرَ أنه أرقَ فلم يَنَمْ، لكنه مع شروقِ الشمسِ كان يمضى عبرَ المساربِ الخفية، البادية، يتقدّمه الدليلُ، مضى الوقت بطيئًا، لكن المأمونَ لم يُبدِ ضَجَرًا، حتى إذا نزل الليلُ. واندمجَ الأهرامُ فى العتمة، لم يُفارق مكانه، بل يقولُ البعضُ أنه لم يُفارقِ سَرَجَ حصانه، أمضى النهارَ التالى كلّهُ يَرُقُبُ طوافَ ابنِ الشحنةِ الدائمَ فوقَ، هناكَ فى أعلى نقطة، حتى إذا غربت شمسُ النهارِ الثالثِ ظهرَ الدليلُ القديمُ، كانَ متعبًا، خائفًا، قالَ مُشيرًا إلى القمة.

«فى البداية لم أصدّق مثله.. لكننى استوثقتُ بعدَ أن أطلّعتنى..
وعندما غابَ عنى لحظةَ دورانِهِ جهةَ الغربِ ظننتُهُ تَعِبَ فمكّثَ ليستريحَ..
لكننى لم أره قطُّ. خَشِيتُ فجئتُ..»

التفت الخليفة إلى قادة جنده. وأقرب صحبه، أمر بإطلاق نفيـر
الرحيل، وقطع المراحل بدون توقف، وحار الخلق كلهم، من حضروا،
ومن قرأوا فيما بعد أخباره، ولكن لم يستدل إنسان إلى شيء قاطع، مع
كثرة التفاسير، وتعدد الروايات.

* * *

مَاتَنُ خَامِس

نَشْوَة

.. لأنها تحدّثت إلى كثيرين، معظمهم من العاملين في المنطقة،
خفراء، باعة، أدلاء، رجال هيئة الآثار، فلم يعرف أحدٌ متى ولا كيف
اتفقت معه على دخول الهرم عند مطلع الشمس، كثيرون تمنّوا إناثٌ من
شَتَّى أنحاء الدنيا. مختلفٌ مراحل العمر، تتنوّع ملامحهن، وشخصياتهن
إلا أن ظهور تلك البُنية مُغايرٌ. هي أجنبية شكلاً، مصرية روحاً لحفّة
دمها، وظُرفها، وسُرعة بديهيّتها، وخصُوصيّة دلالتها، وأيضاً. . إتقانها
العريّة رغم أنها تعلّمتها في بلادها، لكنها تتحدّث وكأنها ولدت في
الجمالية. وأمضت عُمرها في بولاق أو إنابة!

ظهورها اعتُبر فيما بعد علامة، خاصّة بعدما تردّد وصار يرويه
القوم، كانت شاهقة الأثوثة، سيسبانية القوآم، صفصافية الشعر، فمها
مدخلٌ ثرى، ناعمٌ، إلى عالم لا تُلوح ملامحه، تمشى في الأرض
مرحةً، جوّالة، أفضت لمن أصغوا إليها أنها تقوم برحلة حول الكوكب
وأنها خصّصت الوقت الأطول للاطلاع على ما تضمّه مصر من
عجائب، بالطبع أوّلها الأهرام، تبدأ بالأكبر، ثم الأوسط فالأصغر، ثم
تمضي إلى الأقدم: أبو صير، أبو النمرس، سقّارة، دهشور، ميدوم.
اللاهون. . لن تفارق البلاد إلا بعد المعاينة. والفُرجة، والمقارنة،
وتدوين هذا كلّه.

تعدّد مراتُ ظهورها، يوماً بعد الآخر شاعت ابتسامتها، راجَ أمرُ
حُسْنها واشتهرت ملامحها، تحدّث القوم. تجيء من وسط المدينة حيث
تُقيم في أحد الفنادق العتيقة التي يقصدها الأجانب متواضعو الدُخول
والإمكانيات.

قَسَمَاتُهَا تَتَضَمَّنُ تَرْحِييَا دَائِمًا، لَا تَصُدُّ أَىَّ سَاعٍ، لَمْ تَكْسِفْ مَخْلُوقًا
أَبَدِي لَهَا وَدَا أَوْ إِعْجَابًا، لَكِنْ . . لَمْ يَصْدُرْ عَنْهَا ابْتِدَالٌ مَا، ثَمَّةَ شَيْءٍ فِي
نَظَرَاتِهَا، فِي صَوْتِهَا، فِي حُضُورِهَا. يَلُوحُ فَجْأَةً فَيَضَعُ حَدًّا، وَيُوقِفُ
الرَّاعِبَ فِي اجْتِيَارِ الْحُدُودِ.

كُلُّ مَنْ شَاهَدَهُ يَتَقَدَّمُهَا قَبْلَ شُرُوقِ الشَّمْسِ بِاتِّجَاهِ الْمَدْخَلِ تَمْنَى لَوْ أَنَّهُ
بَدِيلٌ لَهُ، يَسْعَى أَمَامَهَا أَوْ بَيْنَ يَدَيْهَا، تِلْكَ الْفَارَهَةُ، الْفِيَاضَةُ، حَدِيقَةُ مَنْ
الْإِسْتِدَارَاتِ الْفَوَارَةِ، تَلْغِي حُضُورَ مَاعِدَاهَا، تَفِيضُ عَلَى الْكَافَةِ. هُوَ
مُكْتَمَلٌ، مِنَ الْأَصْلَاءِ الْأَمْتَمَكِينَ، أَبَدِي مَهَارَاتٍ أَعْجَبَتْ الْجَمِيعَ، كَانَ
رِيَاضِيًا مُتَيَّنًا مُتَقَنَّا لِلْأَلْعَابِ الْيَابَانِيَّةِ، حَازَ فِي سَنِ الْعَاشِرَةِ الْحَزَامِ الْأَسْوَدِ،
كَانَ وَثِيقَ الصِّلَةِ بِمَنْ عَمَلُوا هُنَا، مَصْرِيِّينَ أَوْ أَجَانِبَ، ذَائِعُ الصِّيتِ بَيْنَ
الْمُهْتَمِينَ.

كَانَ وَسِيمًا، مُتَقَدِّمًا، صَرِيحَ الْمَلَامَحِ، كَأَنَّهُ خَارِجٌ لِلتَّوَّ مِنْ جِدَارٍ مَعْبُدٍ
لَمْ تَتَغَيَّرْ أَلْوَانُهُ وَرَسُومُهُ، عُرِفَ عَنْهُ تَعَفُّفُهُ وَرَهْدُهُ فِي الْأَجْنِيَّاتِ اللَّوَاتِي
يُرْغَبُ أَحْفَادُ مَنْ عَاشُوا هُنَا، مَا تَعَرَّضَ لَهُ مِنْ إِغْرَاءَاتٍ لَيْسَ سِرًّا، بَدَأَ
مِنَ التَّلْوِيحِ بِالْإِعْجَابِ إِلَى التَّصْرِيحِ، إِلَى فُرْصِ عَمَلٍ مُغْرِيَةٍ فِي الدِّيَارِ
الْبَعِيدَةِ، بَلْ إِنْ أَكْثَرَ مِنْ امْرَأَةٍ عَرْضَ عَلَيْهِ عَقُودَ عَمَلٍ صَحِيحَةٍ، إِحْدَاهُنَّ
مِنْ أَصْلِ عَرَبِيٍّ تُقِيمُ فِي كَنْدَا وَتَمْتَلِكُ أَرْضًا، وَمَحَطَّاتٍ بَنَزِينَ، وَمَنْزَلًا
عَلَى بَحِيرَةٍ، وَيَخْتَارُ يَرْسُو فِي خَلِيجٍ، طَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يَضَعَ الرُّقْمَ الَّذِي
يُرِيدُهُ. فَقَطَّ . . لِيَصْحَبَهَا وَيَكُونَ عَلَى مَقْرَبَةٍ، لَكِنَّهُ أَبَى.

لَأَمَّهُ صَحْبَةً، تَمْنَوُا لَوْ أَنَّ مَا عُرِضَ عَلَيْهِ قُدِّمَ إِلَيْهِمْ، لَوْ أَنَّ الْفُرْصَةَ الَّتِي

تسبح له واتتهم. وصفه البعض بالغباء، وقال آخرون إنه ذكيّ، وهمس أحدهم: بل إنه يُخفي أمراً، لكن لم ينل أحدٌ من رجولته، أو التفوه بما يمكن أن يمسّه، تمناه آباءٌ زوجاً لبناتهم، وسعى تجارٌ إلى انتمائه على تجاراتهم، لكنه أخلصَ تماماً لوصية أبيه، أن يسلك دربه، وأن يتم عمله، ألا ينأى بعيداً عن الأهرام.

.. كان عطر السيرة. يُخلف أثراً طيباً عند كل من تكلم إليه. أو سمع منه، ضرب بخطاباته المثل، يقول القوم: أكثر من بريده، تجار الطوايع طلبوا شراء ما يتلقاه، لكنه أرجأ الاستجابة إلى الوقت المناسب.

متى التقى بالهيفاء؟

أين تم الاتفاق بينهما؟

هذا ما لم يعرفه أحد.

أهو الذي سعى. أم هي التي اختارته؟

لا يمكن القطع.

أول رؤيتهما معاً صباح ذلك اليوم، يتقدّمان فوق الأحجار الضخمة باتجاه المدخل، كانت ترتدى قميصاً أزرق وبنطلوناً أصفر، يبدو من خلاله حواف سروالها، وحذاء أحمر. يؤكد خفيرٌ قديم أنه سمعهما يتحدثان بلغة غريبة لا يعرفها، ولم يسمعها من أي أجنبي، إنه يتقن الإنجليزية والفرنسية والإيطالية واليونانية والروسية وبعضاً من اليابانية.. لكن ما فاها به لا يمت إلى ذلك.

أما الخفيرُ الذي تسلَّم تذكُّرَها وقطعَها إلى نصفين فقال إنها كانت غايةً في الألق، تكسف المتطلعَ إليها وتُحرضُه أيضًا، أكَّد نظراتِها الولهيَّ إليه، لم تكن متطلعةً فقط إنما بدَّت مستطعمة، مستمتعة، أما هو فلم يظهر عليه أيّ عارضٍ جديد، ربما هذا ما حبَّها فيه

رواياتٌ شتى تقصُّ تفاصيلَ عديدة، يتَّصل بعضها بمصادرٍ معينة، لكن الجميع يتفقون على اجتيازهما النقب لحظة الشروق.

هو . . . وهى فى أثره.

عندما انحنت قليلاً لتلج الدهليزَ بانَّت خطوطُ كينونتها، مُحكمة، فاصلة، واصلة، مؤثرة، مُرجفة.

أوغلا في الممرَّ الأول الصاعد، والثاني المائل، ثم . . . ثم الثالث الذى لا وصفَ دقيقاً له، إنما يختلف تقديره من إنسان إلى آخر، وتناثرت الإشاراتُ إليه في كُتب الأقدمين والمُحدثين. بقى أمر، مُلغزٌ مُحيرٌ تماماً مثلَ حقيقة «أبو الهول»، أو أرصاد الجنِّ التى تحمى الكنوز الخبيثة، ومصادر الأذى الخفية التى تلحق بكلِّ مَنْ هتَكَ سرّاً يتعلَّق بالموتى الراحلين، أو أتى بفعل شائنٍ على مقربةٍ منهم.

فتحةُ الدهليزِ أو الممرِّ أو ذلك الباب الخفى لا يظهر إلا على فتراتٍ متباعدة أو متقاربة، يتكرَّر ظهورُها فى أوقاتٍ متلاحقة، وربما تمضى سنواتٌ لا يسمع بها شخصٌ. دائماً مسدودة، جزءٌ من الجدران المُصمَّتة، الحجرية.

مَنْ يفتحها؟

مَنْ يُغْلِقُهَا؟

ما هي الأسباب والعوامل؟

هل هي مستطيلة، مربعة، دائرية؟

لا أحد يمكنه ذلك، حتى أولئك الذين أفنوا السنوات الطوال في
الدرس والفحص وجسّ كلّ حجرٍ ودسّ أصابعهم في الحُفَر والشقوق.

المؤكد مما يرويه القوم، أن قوة هائلة تندلع داخل الرجل أو المرأة،
درجة من الرغبة لم يصفها أحد.

هل كان واعياً عند اجتيازها؟

يقولون إن عبق البنية غطى على ماعداها عنده فلم يعبا، حتى أنه
أوغل عبر الفتحة بدون أن يدري، لم يلتفت إلى الورا، ولا اليمين، أو
الشمال، إنما مضى متأثراً بمجالها، وعند نقطة معينة التفت إذ لفحه
دفؤها، لم ير منها إلا عينين متقدتين، نفاذتين، ناعمتين، تفيضان حيوية
على المحسوس كُله، اجتاحت رعدة مكينة، أما نسيمها الخاص، أرجها
الأنثوى فقد أوغل وشمله وفاته فوثا استدأر ف وقعت المواجهة.

كلها مشرعة ناحيته، متأهبة له، كان مستقبلاً ومرسلاً، منها وإليها،
اتصل تطلعهما صوب بعضهما، شيئاً فشيئاً يسرى ما يشبه الحليب الفاتر
عندهما، غمس كل منهما نظراته في الآخر، ثم.. صار التقدم.

حال جديد، عليه وعليها أيضاً، مغاير تماماً لكل ما عرفاه أو خبراه من
تأجيج أو ازدهار رغبة، متى جرى تجددهما، ثم بدأ امتزاجهما؟

تشاكلت أطرافُهُما، لم يَعُدْ أحدهما مُلَمًّا بأصابعه أو يديه أو انحناءات الكتفين، ومصادرِ الرعشات والغمغمات، وتحسُّسِ اللسانين بعضَهُما، تبادُلَهُما المواقع، بل إن مسامَّهُما بدأتْ تَشَاكُلُ، جرى تَكَوُّبُهُما لحظةَ إِيغالِ كلِّ منهما صوبَ الآخر.

ما مِنْ حَدٍّ للتصاعد، لنموِّ النشوة، لانتقادِ الرغبة، كافةُ موروثهما من الصور واللحظات والرؤى والأفكار يتلاشى تمامًا، لم تَعُدْ كينونتهما ذاتَ امتدادٍ تحقِّقُ في الفئات، محتملٍ في الآتى. . . إنما صارت مندمجةً في لحظة غامضة، قادمة من منظومة زمنٍ آخر لا عهدَ لكلِّ منهما به. لحظةٌ لا قَبْلَ لها ولا بعد، مبتوتة، منقطعة، خارجة عن أىِّ سياقٍ معهود، لم يكن ثمةَ حَدٌّ للارتواء عندهما، إنما انتقادٌ مستمر، متصاعد. ومثلُ هذا لا يُعرَفُ له مثيلٌ، وَمِنْ ثَمَّ يُعَسَّرُ الوَصْفُ ويصعبُ.

تداخَلت عناصرُهُما، بدأ انصهارُهُما يتحقَّقُ مع عجزِ وجودِهِما الجثمانى المحدودِ عن احتمالِ أو استيعابِ شهوةٍ عارمةٍ فاقت كافةَ الحدودِ، بدأت أطرافُهُما تتحوَّلُ على مهلٍ إلى لونٍ أسودٍ غامقٍ مشوبٍ بحمرةِ الوقيد، ثم طال الأمرُ وعاءَ كلِّ منهما الجثمانى، تَذَرَّى إلى ما يُشَبِّهُ الرمادَ وإن لم يبدُ كذلك.

* * *

مَتَنُّ سَادِس

ظِلّ

لسنوات رَدَدَ القومُ أَخْبَارَهُ، تناقلوا أمرَهُ، دَقَّقَ البعضُ وَصْفَهُ وَذِكْرَهُ،
لم يقتصر الأمرُ على القرى والنجوع والكفور المتقاربة في بر الجزيرة، إنما
تجاوزَ إلى أطراف شتى، وأشارَ إليه باحثون معنيون، وصحفيون،
ورحالة، وقناصلُ أجانبُ يكتبون كلَّ كبيرة وصغيرة في تقاريرهم. المتفقُ
عليه بين الرواة الذين عاينوه عن قُربٍ أو تحدّثوا إليه أنه جاء من مكانٍ
بعيد، لكنهم يختلفون في تحديده، في تعيين البلدة التي ينتمى إليها.
يقول بعضهم إنه كان في الطريق من بلاد المغرب الأقصى إلى مكة قاصداً
الحجَّ، وأنه تَخَلَّى عن الركب، خرجَ منه، بعد أن وقعَ في يده ذلك
الكتابُ الذي لم يُطلع عليه أحد، أو عندما جاءه الهاتفُ الخفيُّ بما دَفَعَ به
إلى الحيدة عن المسارِ وتغييرِ الوجهة.

جاءَ من سَمَرْقَنْدا

بل خرجَ من بُخارى!

لا.. المؤكَّد أنه من خوارزم.

في كلِّ الأحوال ينتمى إلى الشرق، ودخلَ البلادَ مشياً على قدميه،
اقتنع أصحابُ الأمر أنه طالبُ علمٍ، معنَى بما تَرَكَّهُ الأولون من آثارٍ،
قصدَ الناحية الواقعة بين «أبوصير» ودهشور، قُربَ الحدِّ الفاصلِ بين
الخُضرة والصفوة، بين الزرع والجذب، بين خصوبة الوادي وأبدية
الصحراء الساكنة، أبدى اهتماماً بالهرم الواقع الجهة البحرية، يقولُ
الأهالي إن هرمَ الجزيرة الأكبر يقولُ له: يا أباي، إشارةً إلى قَدَمِ الأصغرِ
وسبقه، وتضميناً غيرَ مُباشرٍ لما يؤكِّده العاملون أن «ستفرو» والدِ خوفو هو

الذى سيّده. قلة أكّدوا أنه أبدى حينئذٍ إلى البحر بما يعنى انتماءه إلى إحدى البلاد الواقعة هناك. لكن، لم يتأكد ذلك. المؤكّد أنه غريبٌ عن مصر، أنه دخّلها دون العشرين، أول مرة شوهد فيها كان فتياً، عَفِيّاً، قادراً على الحفر بمفرده وحمل أثقال، وشقّ جذع نخلة ليقيم منها ما يشبه جذراناً وسقفًا يقيه شدة رياح العراء ليلاً. لكنه لم يَأْوَ قط إلى هذا المكان نهاراً، ذلك أنه منذ طلوع الشمس، بل قبل إطلالة قرصها يسعى إلى الموضع الذى حدّده الكتاب. أشارت إليه السطور وعينته الألفاظ.

يلزم. . لا يتحرّك، إنما يتابع حركة الظلال حوله بانتباه بالغ وعينين يقظتين، متوقعتين وصول ظل الأهرام إلى نقطة معينة من الأرض، ينبت منها جذع شجرة قديم لشجرة بلغت من العمر حداً متقدماً، جذر ذو ثلاث شعب، متشّبت باليابسة، نخر، من أغصان نحيلة متبقية تنبت في أوقات معلومة وريقات خضراء، درجة زاهية، صريحة من اللون.

كان دائم التطلع إليه، طويل النظر، شديد القرب منه ليلاً، خاصة بعد امتزاج الظلال وانعدام الفروق فيما بينها.

لم يكن ممكناً الحديث إليه والاستماع منه إلا بعد تمام الغروب، في النهار يظل شاخصاً، لا يحيد، لم يره أحدٌ يأكل. ولم تقع عين على بقايا قربه حتى حار القوم الذين بدأ نزولهم على مقرية منه وبنوا بيوتاً من اللبن أو الحجر، وشقوا قنوات صغيرة من المياه أيام التحريق، ونزحوا من مياه البحيرة التى تبدأ الامتلاء صيفاً وتسرّجرج فوق صفحتها الأهرامات الثلاثة المتقاربة، المنعكسة. كانوا متخصصين فى زراعة النخيل ورعايته. ومداداة

آفاته، وتلقيحه فى المواسم، تقليمه، صعوده، جمع دموعه، عَدَدٌ كبيرٌ من النخيل على حافة الصحراء، كَانَ التمرُ يَنْبُتُ، يَنْضِجُ وَيَسْقُطُ فَوْقَ الأرضِ، لا يجد من يجمعه، إِلَى أَنْ اسْتَقَرُّوا وَأَبْدُوا وشاع أمرهم. كان بعضهم يمضى إلى أماكن قَصِيَّةٍ لعلاج نخلة.

ولأنهم وفدوا فوجدوه عند المدِّ الفاصل بين الوادى والصحراء، احترموا صمته وتحديقَه، ثم اعتقد بعضهم فيه، صاروا يسعون إليه طلباً للنصح، ثم البركة، بشكلٍ ما عرفوا قصده. وإن اختلف التصورُ.

قال بعضهم إنه ينتظرُ إشارةً، لن تظهرَ إلاَّ له.. هو وليس غيره، بعدها يُسْفَرُ الأهرامُ عن خبايا لم يسمع بمثلها أحد، ولا بدَّ أن خيراً سيُطالهم، لذلك سَعَوْا دائماً إليه، لم يصدَّ أىَّ إنسان قصده، كان بشوشاً، رقيقاً، ألوقاً، عنده يُسرُّ، ليس عنده نفرةٌ من الآخرين، كلُّ ما رَغِبَهُ أن يطلبوه ليلاً، أن يدعوه وحيداً نهاراً، لانتظاره الطويل، الممتدَّ، يمكنُ أن ينتهى فجأةً، فى أىَّ لحظة.. عندما يحيدُ ظلُّ الأهرام عن مساره، يتصل بتلك النقطة. عندئذ تتكشفُ له الأسرارُ كافة، أسسُ العلوم، ومفاتيحُ الرموز، يمكنه الدخولُ إلى ما استعصى على البشرِ كافةً، الوصولُ إلى ما طالَ عليه الأمدُ مخفياً، مستوراً، ما عَسَرَ كَشْفُهُ على الخلقِ.

كان يتداخلُ فى بعضه إذا اضطرَّ إلى مجالسة، خاصةً إذا جاءه كبيرٌ من القوم وأظهرَ له التواضعَ والرغبةَ فى القُرْبَى تَبَرُّكاً أو سعيًا، كان - يحفظُ بلسانه، وعينى ذاكرته تلكَ السطورِ التى اطلَّعَ عليها منذُ زمن،

وعلى مسافة نائية، أصغى إلى كَافةِ ما يترددُ عن الأهرامِ، سواءً صدرَ ذلك عن مُتخصِّصين، قاسوا الارتفاعات وأحصوا الأحجارَ واختبروا مِيلَ الزوايا، أو الأهالى الذين احتفظت ذاكرتهم بوقائع بعضها حقيقى والآخر مُتخيلٌ. بدءًا من وصفِ ملامحِ الحرسِ الخفى الذى يدفع كل أذى، إلى الطلاسم التى تحمى المباني القديمة من أخطارِ شتى، إلى ما يتردد عن وجود أحياء يسعون ويعيشون حيواتهم فى عوالم مضيئة، فسيحة داخل الأهرام، يتناسلون، ويجيئون ويرحلون، وأحيانًا تقعُ حروب بينهم، وما تلك القرقعات المنبثة أحيانًا إلا بعضُ أصداؤها، إلى مصير كل عابثٍ وعابثة داخل الأهرام، ألَمْ يعثروا على شاب وشابة فى الأكبر وهما مُفحَّمان تمامًا، قالوا إنهما بعدَ شُروعهما اندلعت نيرانٌ لم تبق على ما يَدُلُّ عليهما، ومثلُ ذلك جرى فى الأزمنة المختلفة. إلى الحديث عن أنهارٍ تتدفقُ فى مكانٍ ما داخلَ الأهرام وشطآنٍ حافلةٍ بكل نباتٍ غريبٍ، جميل...

كانَ يسمعُ، وكانوا ينظرونَ إليه، اعتادوه، ومع مرَّ السنوات أصبحَ جزءًا من ذاكرة الذين وُلدُوا وشبُّوا ونَمَّوا فى تلك الأنحاء، استمروا على ما أبداهُ أجدادُهم وآباؤهم، احترامُه والتبرُّكُ به والخشيةُ بشكلٍ ما منه.

لم يتحرَّك من موضعه، لم يَحْتَمِ إلا بجذوع النخيل التى شَقَّها وسَوَّاهَا وعالَجَها بيديه، وعندما حلَّ به مَرَضٌ زحفَ إلى شجرةٍ عتيقة ورضعَ جِذْعَها بعد أن أولَجَ فيه ما يُشبه المِسْمَارَ.

كان دائم التطلُّع إلى السماء، إلى الهرم، إلى الجذورِ المُطلَّة من التربة،

إلى نقاطٍ شتى لا يُمكنُ تعيينُها. ربما الجهة التي قَدِمَ منها، أو.. لإدراك المساراتِ غيرِ المرئيةِ المؤثرةِ على حركةِ الظلالِ وانتقالِها، وانتمائها إلى الأصولِ.

فوقَ تلكَ البقعةِ من الأرضِ كَثُرَتْ عليه أيامٌ وليالٍ، رأى تحولاتِ الضوء: أصغى إلى تتابعِ دقائق قلبه إذ يُسندُ رأسَه إلى ذراعه عندما يسعى إلى إغفاءة، يرصدُ ما يجري داخلَه، يُحاولُ التعرفَ على ما يجري عنده. فى لحظةٍ ما أدركَ أن التتابعَ القادمَ من ماضٍ بعيدٍ قد لحقَه تَغَيُّرٌ ما، أن دَفَقَ الدمِ يتعثَرُ أحيانًا.. لم يعدَ قادرًا على الخطوِ بالإيقاعِ نفسه. اتخذَ من جريدِ النخلِ عصًا يتوكأ عليها حتى يمكنه المشى حولَ الأهرامِ بعدَ الغروبِ مباشرةً. كان ظهورُه مُثيرًا للصغارِ، مُلفتًا للكبارِ رغمَ مَضَى المدةِ واعتباره جزءًا من المراثياتِ الطائفةِ.

بقدرِ ما كانَ يقتربُ من الأهرامِ بقدرِ ما كانَ يعى بلوغَهُ نقاطًا مُتقدِّمةً فى الوقتِ، أن ما فاتَ كثيرٌ.. كثير، وما بقى قليلٌ.. قليل، غيرَ أن يقظَتَه لم تَهِنْ، وَحدةٌ وعيه لم تَحُدْ، كان يرقُبُ حُلُولَ تلكَ اللحظةِ المدبَّنةِ، الموصوفةِ بدقةٍ والتي لم يعدَ يُمَيِّزُ إلّاها رغمَ أنها لم تحلْ بعدُ، عندما يحيدُ الظلُّ عن مَسارِهِ الأبدى، حتى يتصلَ بتلكَ البقعةِ من الأرضِ، عندئذٍ...

لا يعرفُ إنسانٌ كيفَ أدركَ القومُ حقيقةَ ما جرى، ما تناقلوه أرمنةً طويلةً، لكن المعمَّرينَ منهم يذكرونَ جَعيرَهُ الهائلَ الذى خَضَّ الأطفالُ وأرجفَهُم فى سائرِ الأنحاءِ القريبةِ، وألَزَمَ الحيواناتِ والدوابِ أماكنَها.

اللحظةُ المتوقعةُ مرّت، لم يتبّه إليها.

كيف؟

كيفَ وكيّنونتهُ كلّها محورُها التوقُّعُ، والحذر؟؟

اللحظةُ لم تحلّ نهاراً، إنّما امتدّ الظلُّ ليلاً.

كافّة توقعاته، وحساباته جرّت على أساسٍ أنّ التحققّ النادرَ المثيرَ سوفَ يتمّ نهاراً، وهل تُولّدُ الظلالُ إلا منَ الضوءِ؟ غيرَ أنّ ما جرى عكسَ ذلك، فللقمرِ والنجومِ قُدرةٌ على بثّ الظلالِ. صحيحٌ أنّ القمرَ كانَ غائبا تلكَ الليلة. غيرَ أنّ النجومَ تتوالّدُ عندَ حافةِ الصحراءِ وتفيدُ من سائرِ أنحاءِ الكونِ.

هكذا.. مالَ ظلُّ القمةِ المدبّية، النهايةَ القانية في الفراغ، اتّجهَ على مهلٍ صوبَ جذورِ الشجرةِ القديمة، المتشبّثة، هكذا.. تحقّقتَ اللحظةُ ولم يشهدْها إلا طائرٌ غريب، وحيدٌ مهاجرٌ من بعيد، طليعةُ أسرابٍ تحطُّ منهكةً في مثل هذا الوقتِ كلّ عام، لم تصل بعدُ.

عندما استيقظَ تطلّعَ إلى الهرمِ، إلى الأرضِ، إلى الجذورِ التي بدّت كأَسنانٍ خربة. إلى الفضاءِ، إلى الغربِ، إلى الشرقِ، إلى الشمالِ، إلى الجنوبِ، إلى فوقِ، إلى تحت.

كيف أدركَ؟

لا يدرى أحد.

كيف استوعبَ؟

لا يعلمُ إنسان.

لَزِمَ عمرُهُ كُلَّهُ ولم يَحْد، وعند التَحَقُّق نالَ المأمولَ ما لَن يَعيه، ما لَن يُدركَ حَقِيقَةَ ما استوعَبَ إلا بعدَ فَناءِ كُلِّ الطيورِ وبقائه إلى الأبد، مُحوِّمًا، مُغادرًا، وأَصلاً، مُقلَعًا، حَاطًا، ولكن.. من يُدركُ ريشَةً من جناحه سيبقى مثله، سَيَتَقَلُّ إِلَيْهِ ما استقرَّ لَهُ، ولكن.. كيفَ الاستدلالُ عليه؟ وأين؟ وبأى لُغَةٍ؟

وكيف يكفى ما تبقى؟

لهذا كان صُراخُهُ، جَعِيرُهُ في مواجهةِ الأهرامِ ضارياً، لم يسمع القومُ مثله، لا مِن قَبْلُ.. ولا مِن بَعْدُ.

* * *

مَتْنُ سَابِع

أَلْق

كَفَّ

تَوَقَّفَ

ما يراه لم يسمع عنه، لم يقرأ ما يدلُّ عليه، بقدر ما فُوجئ، بقدر ما
شعرَ براحة غامضة لا يمكنُ القياسُ على مثيلِ لها، أو مضاهاة اللحظة
بأخرى مُنْقَضِيَةٍ.

كانَ قادمًا من الشرقِ إلى الغرب، من تحت إلى فوق، صاعدًا الهضبةَ
بمحاذاة نقطة غير مرئية تتوسطُ الفراغَ الفاصلَ بينَ الهرمِ الأكبرِ والأوسطِ.
ظهِيرةٌ شتويةٌ سيّالة، لكن... هذا الضوءُ البراقُّ، المنصهرُ لا علاقة له
ولا صلةً بالشمسِ البادية، لم يَدِرْ مصدره بالتحديد، ربما من داخله،
لكنه لا يُشبه ذلكَ البريقَ الحادَّ، الساطعَ، المُنْبِيّ بنوباتِ الصُّدَاعِ الموجعة
التي جاءَ بها إلى الدنيا، أقدمُ صُورِ عُمره مرتبطةٌ بالآمة، لا... هذا ألقٌ
مغاير، له المفاجأة والاستمرارية.

هل يصدرُ من جهة؟

إذن... كيف يُمكنُ تحديدهُ بالمسافة الفاصلة، لا يمتدُّ بعدها، ولا ينقُصُ
قبلها، ولا يشملُ ما يتجاوزُ ارتفاعهما، رَخِيمٌ، نَفَّاذٌ. نزوح الفراغِ ذاته.

خَطَرُ له إمكانيةُ القدم، يُمَتُّ إلى زمن عتيق، تمامًا مثلَ الهواء الذي
تأهَّبَ القومُ لاستنشاقه عندَ فتحِ مقبرة مركبِ الشمسِ المكتشف، غيرَ أن
هذا الألقَ لا يمكنُ تعيينهُ بمكانٍ أو مسافةٍ أو توقيتِ زمني. لا بُعد، لا
مضمون، لا كلماتٌ يمكنُ أن تُستوعَبَ.

طَلِيقٌ.

مُرْسَلٌ دَائِمًا.

راحةٌ تشمَلُهُ لم يعرفها، مع وعدٍ غامضٍ بالوصول، مع استمرار التحديقِ تُلُوحِ خُضْرَةٍ، درجةٌ من الخُصُوبَةِ الرِّيَّانَةِ لم يعرفها من قَبْلُ، هو المَغْرَمُ بالألوانِ ودرجاتها ومتابعة تحولاتها وحفرها في الذاكرة المتماهية. هذا أخضر غزير، درجةٌ واحدة لا تَهْن، لا تَضَعُف. يابَعَةٌ، لم يَرَهَا في أوراق الأشجار، في نباتات البلاد التي رحل إليها وطُوفَ بها، أو في جذوع الصِّبَّار المتقن لأنواعها وفصائلها، أو زراعاتِ الأرز المغمورة بالمياه بين القرى الواقعة على الطريقِ إلى مَسَقَطِ رأسه.

خُضْرَةٌ ضوئية، لا تؤثر عليها الظلالُ، لا تتغيَّرُ بحوافِ الأهرام، هل يَصْدُرُ الأَلَقُ من داخلهما؟

السطوعُ أوقفَه عن المضيّ، عن الخطو، بل إن الدهشة راحت تتوارى. والتساؤلاتُ تختفى، والحيوات تُمَحَى، لانت رقبتُه في مواجهة الاستقرار الوافد، والراحة النابعة.

يتأهَّبُ للمضيّ، للخطو، فالوعودُ بلا حَصْرِ.

يخطو.

تخرجُ قدمُه من قدمه، ويتفصلُ ذراعُه عن ذراعه، ويفارقُ صدرُه صدره، لم يكنِ باستطاعته أن يظلَّ مُعلِّقًا، نصفه في صورة جَسَدِيَّة، والنصفُ في هيئة لم يعهدا من قَبْلُ، فراغٌ ما بين البنائين يرسمُ الشَّكْلَ المحسوسَ عَيْنُهُ، لكنه ليس هو، يؤكدُه وينفيه. هذا حاله.

رحلَ عن رحيله، لم يكن قادراً على التطلُّع إلى الوراء ليعرفَ ما
جَرى له. يتقدَّم مَدفوعاً، مَحْمولاً. سابحاً في كينونةٍ بلا أطر،
مُصاعاً من الضوءِ والخُضرةِ، مُرتقيّاً إلى تلك النقطةِ عندَ الذروةِ بدونِ
صُعود.

* * *

مَاتَن ثَامَن

صَمَت

خرجَ إلى السطح، الليلة الأولى في البيت الصغير القائم قُربَ الصحراء. كل ما يحتويه صاغه بيديه، وكما يرغب، حتى البناء البسيط أشرفَ عليه، وأضفى، لم يترك شيئاً للآخرين، تلك هي اللحظات التي سعى من أجل تحقيقها منذ بدء تردده على الموضع الضارب في العتاقة، بزراعاته، ونخيله، وقنوات المياه، والجسور الصغيرة وخط الأفق الذي تحدّه وتشكّله ثلاثة أهرامات متقاربة، اثنان شبه مكتملان، والثالث خرب، لكنه لم يفقد هيئته، كل ما في الأمر أنه غير متساوي الأضلاع. سمع أهالي الناحية يقولون إن من بنى الثلاثة أشقاء متقاربون، وإن أصواتاً تُسمع أحياناً لا يمكن تفسيرها، ولكنها لغة للخطاب بين ما يُخيّل للقوم أنه جماد صامت، وأحياناً، يتقدم هَرَمٌ ليحلّ مكان الآخر، وأن لكلٍ منهم رصداً خفياً، يحمي المكنون المصون، ويمنع وقوع الفاحشة بالداخل، وهل غاب أمرُ ذلك الشاب وتلك الشابة، أوغلا حتى نقطة بعينها، اتّقدت رغبتهما وعندما تأهبا تفحّما، تحولا إلى رماد، أمّا من يقدرُ على فكّ طلاس تلك الكتابة فتفتّح له دروبٌ لم يعرفها أحد من قبل. ولم يطرّفها بشرٌ.

يتأملُ النجوم.

يشمُّ رائحة الأرض العتيقة، يحاول الإصغاء إلى أصوات الليل، أن يتعرفَ عليها حتى يألّفها، يتعايش معها.

ما هذا؟

يتجهُ ببصره إلى الغرب.. يُحدّق، لا يحيد، ولا يميل، ولا يقدرُ على النطق أو حتى.. إبداء الدهشة.

* * *

مَتْنٌ تَاسِعٌ

رَقِصَةٌ

نقطة ما . .

ما بين المشرق والمغرب .

تبدو لمن صبرَ وحاولَ وجاهدَ وأقنىَ فتمكَّنَ، لا يَحِيدُ موعدها، يكونُ ظهورُها مع اندلاع تلك الموسيقى القادمة من اللامنيح، من حيثُ لا يمكنُ التعيينُ أو التحديدُ.

لا يراها إلا مَنْ أُوتِيَ القدرةَ على احتمال الحنين والشجن وكتُم الزفرة، وعلى قدر المجاهدة يكونُ وضوحُ الرؤية، حتى ليُمكنُ لذوى التمكُّنِ الإحاطةُ بملامحها الملكية، والنفاذُ عبرَ انفراجة شفتيها، والإيواءُ إلى رُكني عينيها الشاخصتين أبداً إلى موضع مغيب الشمس .

أنغامٌ نابعةٌ منها، مُحيطَةٌ بها، يصعبُ تشخيصُها، لا هي وترية، ولا هوائية، ولا نُحاسية، مع اكتمال إيقاعاتها تتمايلُ الجهاتُ الأربع، تتقاربُ حوافُ الكونِ، ينتظم دَوْرانُ الأفلاكِ العُلَى .

لا يمكنُ تشخيصُها . فليست المقاماتُ عربيةً، أو إفريقية أو فارسية، إنما تشملُ هذا كَلَّهُ، أبرزُ ما فيها حينُ مُمضٍ . مُمتدٌ .

مَنْ يثابر يُمكنُه رؤيةُ ارتقائها الفراغَ بقوامها الفاره الجلل، يطالع أنوثتها الكونية، تلك التي حاولَ النَّحاتُ العاشقُ، العابدُ أن يُبرزَ بعضاً منها في تمثالها البادى .

مَنْ يُخلصُ النيةَ باستطاعته رَصْدُ بداية رقصتها، تصاعدها إذ تَبْسُطُ خطوطها وتُلملمها، تفردها وتشيها، عندما يضبطُ جسدُها النغمات، يُبرزُ

الإيقاعات، يَبْثُّهَا إِلَى أَقَاصِي الوجودِ. يَشْهَدُهَا كُلُّ سَاعٍ فِي طَرِيقِهِ، وَكُلُّ مُقِيمٍ فِي مَنْزِلِهِ، شَرْطًا أَنْ يَتَّجِهَ بِكُلِّيَّتِهِ صَوْبَهَا، إِذْ يَدْنُو الْمَغِيبُ عَلَى اكْتِمَالٍ يَبْدَأُ دَوْرَانُهَا، يَتَسَارَعُ حَتَّى لَيَصْعُبَ عَلَى النَّظَرِ الْإِنْسَانِي إِدْرَاكُهَا. تَتَحَوَّلُ إِلَى نَقْطَةٍ، إِلَى أَفْوَلٍ لَا مَفْرَاقَ مِنْهُ وَلَا إِدْرَاكُ.

* * *

مَتْنُ عَاشِر

وكانهم على ميعاد،
وإن باعدت بينهم الأماد.



مَاتَنُّ حَادِي عَشَر

البدايةُ نُقطةُ ،
والنهايةُ نُقطةُ .



مَاتَنْ ثَانِي عَشَرَ

عِنْدَ الذُّرْوَةِ . . يَقَعُ الْفَنَاءُ .



مَتْنُ ثَالِثَ عَشَرَ

كلُّ شيءٍ... مِنْ... لا شيءٍ..

* * *

.

مَاتَن رَابِع عَشَرَ

لا شيء

لا شيء

لا شيء



المحتويات

| | | |
|-----|-----------|------------------------|
| ٥ | تَشَوُّفٌ | * مَتْنٌ أَوَّلُ |
| ٢٧ | إِيغَالٌ | * مَتْنٌ ثَانٍ |
| ٤٩ | تَلَاشٍ | * مَتْنٌ ثَالِثٌ |
| ٦٣ | إِدْرَاكٌ | * مَتْنٌ رَابِعٌ |
| ٧١ | نَشْوَةٌ | * مَتْنٌ خَامِسٌ |
| ٧٩ | ظَلٌّ | * مَتْنٌ سَادِسٌ |
| ٨٩ | أَلَقٌ | * مَتْنٌ سَابِعٌ |
| ٩٥ | صَمْتُ | * مَتْنٌ ثَامَنٌ |
| ٩٩ | رَقِصَةٌ | * مَتْنٌ تَاسِعٌ |
| ١٠٣ | | * مَتْنٌ عَاشِرٌ |
| ١٠٧ | | * مَتْنٌ حَادِي عَشَرَ |
| ١١١ | | * مَتْنٌ ثَانِي عَشَرَ |
| ١١٥ | | * مَتْنٌ ثَالِث عَشَرَ |
| ١١٩ | | * مَتْنٌ رَابِع عَشَرَ |

رقم الإيداع ٢٠٠١ / ١٨٠٣٨
الترقيم الدولي 2 - 0778 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة ٨٠ شارع سيويه المصرى - ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧٠ (٠٢)
بيروت ص ب ٨٠٦٤٠ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)



الرواية الأخيرة لجمال الغيطاني «متون الأهرام» تجربة مثيرة وجديدة في الكتابة السردية، تقارب روح المكان وعطر الثقافة المعتقدية، وتتخذ أشكالاً فائقة لم تفتزع في القص العربي بهذا الإيقاع الشعري من قبل، حتى إنها تخالف نهج الغيطاني الذي اعتدناه في ظاهر الأمر، وإن كانت في الحقيقة تظل تلمساً لحفايا تلك العلاقة الباطنية الحميمة بين الإنسان والمكان، عبر سحر الزمن وخلال تضاعيفه، ترتفع على اليومية المبتذل في الواقع المنظور؛ إذ تتخذ منه - على وجه التحديد - نقطة انطلاق تحفر بعدها في الذاكرة، لتبني وعياً حاداً بمنابع الفن والحكمة في ظواهر الوجود، تبدأ من السطح كي تجرحه وتسيل دمه شعراً دافئاً وفكراً حاراً متدفقاً، مما يجعل هذه التجربة - على وجازتها - إضافة في وسائل مشاركة الأسرار الكبرى للحياة المصرية، كما تتجلى في الرموز الباقية في المكان، المتحدية للزمان.

د. صلاح فضل

على الغلاف
لوحة للفنان
حلمي التوني

دار الشؤون الثقافية

القاهرة، ٨ شارع سيدي بيه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب. ٣٣ النجزة - تليفون: ٤٠٢٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت، ص.ب. ٨٠٦٤ هـاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨٠٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)